البحـــث الأول

الأوقاف والمصارف الوقفية في رحلة ابن جُبير

قراءة استطلاعية

إعـــداد

د. عبدالله بن ناصر السدحان

المشرف على مركز تثمير للاستشارات الاجتماعية والوقفية

ansadhan@gmail.com

نشر هذا البحث وفقًا لشروط الرخصة (CC BY 4.0)، التي تسمح بنسخ البحث وتوزيعه ونقله بأي شكل من الأشكال، كما تسمح بتكييف البحث أو تحويله أو الإضافة إليه لأي غرض كان، بما في ذلك الأغراض التجارية، شريطة نسبة العمل إلى صاحبه مع بيان أي تعديلات أجريت عليه.

للاقتباس: السدحان، عبدالله بن ناصر، الأوقاف والمصارف الوقفية في رحلة ابن جُبير (قراءة استطلاعية)، مجلة وقف، العدد: ١٠، محرم ١٤٤٦هـ، يوليو ٢٠٢٤م.

تاريخ استلام البحث: ٢١/ ٠١/ ٢٠٢٤م، تاريخ قبوله للنشر: ١٤/ ٠٥/ ٢٠٢٤م.

ملخص الدراسة

تهدف الدراسة إلى التعرف على الصورة الوقفيّة في حقبة زمنية من تاريخ الحضارة الإسلامية، خاصة حين تكون تلك الصورة من شاهد عيان عاصر تلك الحقبة، واطلع عليها ذِكرًا أو وصفًا، وغالبًا ما تستشهد الدراسات الوقفيّة بنصوص لبعض الرحالة المسلمين حول تلك الأوقاف، ومن تلك رحلة ابن جُبير التي زار خلالها مصر، وبلاد الشام، والعراق، ومكة المكرمة، والمدينة المنورة، خلال رحلته للحج التي استمرت أكثر من عامين.

وهذه الدراسة تكشف المظاهر الوقفيّة التي شاهدها ابن جُبير في رحلته لرقعة كبيرة من العالم الإسلامي، مع محاولة رصد بعض الاستنتاجات ذات العلاقة بالأوقاف، وكان من أبرز تلك الاستنتاجات أن التركيز غالبًا ما يكون على ذكر المصارف دون الأوقاف المدرة نفسها، كما فات على ابن جُبير ذكر الكثير من الأوقاف، التي ورد ذكرها في مؤلفات أخرى، كما كان هناك توازن إلى حدٍ كبيرٍ في ذكر الأوقاف وأنواعها، ولم يكن ثمة تركيز على نوع دون آخر من الأوقاف، إلا في الأوقاف العلميّة والمدارس، فقد احتفى ابن جُبير بالأوقاف العلميّة والمدارس التي أنشأها صلاح الدين الأيّوبيّ في مصر والشام، وحسن الترتيب فيها، ومما يستغرب عدم نقد الممارسات الشركيّة عند بعض القبور والمشاهد التي زارها، وهي ممارسات شنيعة بحق التوحيد.

وختامًا لعله من المفيد دراسة الأوقاف والمصارف الوقفية في العالم الإسلامي من خلال كتابات رحالة آخرين لتكوين صورة أكثر وضوحًا عنها كما شاهدها الرحالة ووصفوها بما يمتلكونه من حس توصيفي يتفوقون فيه على غيرهم.

الكلمات المفتاحية:

الأوقاف التاريخية ـ مصارف الأوقاف ـ الرحلات ـ ابن جبير.

Study Summary

Endowments and Endowment's Channel of Expenditures in Ibn Jubayr's Journey (An Exploratory Reading)

Prepared by:
Dr. Abdullah bin Nasser Al-Sadhan
Supervisor of Tathmeer Center for Developmental and Endowment Consultations

Copyright and License information
© This research is published under the terms of the license (CC BY 4.0), which permits copying, distribution, and transmission of the research in any form, as well as adaptation, transformation, or addition for any purpose, including commercial purposes, provided that the work is attributed to its author, with a statement of any modifications made to it.

For citation: Al-Sadhan, Abdullah bin Nasser, "Endowments and Endowment Distributions in Ibn Jubayr's Journey (An Exploratory Reading)," Waqf Magazine, Issue: 10, Muharram 1446 AH, July 2024 CE.

Article notes

Received January 21, 2024AD; Accepted May 14, 2024AD.

The study aims to explore the endowment landscape during a certain era of Islamic civilization history, especially when that landscape was witnessed by a contemporary observer who had firsthand knowledge of it, whether through mention or description. Often, endowment studies reference texts of Muslim travelers regarding these endowments. One such journey is that of Ibn Jubayr, during which he visited Egypt, Greater Syria, Iraq, Mecca, and Medina during his pilgrimage that lasted over two years.

This study unveils the endowment aspects observed by Ibn Jubayr during his extensive journey across the Islamic world, while attempting to capture some related conclusions. Among the most prominent conclusions is that emphasis is often placed on mentioning the financial channel of expenditures rather than the endowments themselves. Ibn Jubayr overlooked many endowments, which

were mentioned in other works. Moreover, there was a considerable balance in mentioning various types of endowments, with no particular focus on one type over another except for educational endowments and schools. Ibn Jubayr praised the educational endowments and schools established by Salah al-Din al-Ayyubi in Egypt and Greater Syria, noting their well-organized structure.

It is surprising, however, that there was no critique of polytheistic practices at some of the tombs and sites that he visited, practices that are heinous to monotheism.

In conclusion, it would be beneficial to study endowments and endowment channel of expenditures in the Islamic world through the writings of other travelers to form a clearer picture, as they possess descriptive skills that surpass others.

Keywords:

Endowment - Historical Endowments - Endowment channel of expenditures - Travels - Ibn Jubayr

مدخل

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فيُعدُّ الوقف من العلامات الفارقة في مسيرة الحضارة الإسلامية، وشامة في جبينها بما يمتلك من خصائص خيريّة فيّاضة، فالحضارات البشرية تتمايز بمقدار ما تملكه من رصيد إنساني وأخلاقي تقدّمه للبشرية، ولقد بلغت الحضارة الإسلامية الذروة في ذلك، ولم تقتصر على الإنسان فحسب، بل تجاوزته إلى ما هو أدنى مرتبة في سلم الحياة، وهو الحيوان، يحدوها في ذلك قول المصطفى ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الإِحسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ...**»[1]، فالطابع الخيري للحضارة الإسلامية يمثل ركنًا ركينًا وأساسًا متينًا لها، ولا يمكن النظر إلى تاريخ الأمة الإسلامية بمعزل عن هذه السمة التي اتصف بها المجتمع المسلم بعمومه على مرّ العصور، فالوقف ضمن مرتكزات هذه الخيريّة التي اكتساها المجتمع المسلم.

ونظام الوقف بكونه نظامًا خيريًا موجودًا منذ القدم بصور شتى، ولكن من المؤكد أن نظام الوقف في الإسلام بشكله الحالي يبقى خصوصية لا يمكن مقارنته بصور البر في الحضارات أو الشعوب الأخرى، وهذا عائد إلى عدة أمور، منها: التعلق الشعبي به وعدم اقتصاره على فئة دون أخرى، فضلًا عن امتداد رواقه ومظلته إلى أمور تشف عن حس إنساني رفيع تشمل الجوانب الكمالية والتحسينية فضلًا عن الأمور الضرورية في حياة الفرد، وكذا عدم اقتصار الوقف على أماكن العبادة، بل امتد نفعه إلى عموم أوجه الخير في المجتمع.

لقد انساحت خيرية الوقف زمانًا ومكانًا وتاريخًا، والحاجة ماسة لتوثيق هذه الصور الوقفيّة المتميزة التي كانت نتاج خيرية المجتمع التي تدفعه إلى تلمس

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، النووي، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة، دار الخير، بيروت، ١٤١٤هـ، وقال النووي عند شرح الحديث: إن هذا الحديث من الأحاديث الجامعة لقواعد الإسلام، ج١٣، ص٩٢.

مواطن الاحتياج، ومحاولة سدّها، وألا يؤتى المجتمع من قبلها، فقد كان نظام الوقف مفتوحًا أمام الجميع، ولم يكـن مختصًا بفئة محددة، ويرى بعض الباحثين أن نظام الوقف كان وراء بروز الحضارة الإسـلامية وليسـت الدول الإسـلامية المتعاقبة أو الخزائن السلطانية[١].

ويذهـب بعض الباحثين إلـى أبعد من ذلك حيـن يرى أن الوقف فـي الحضارة الإسـلامية كان ركيزة النهضة العلمية والفكرية العربية والإسلامية على مدار القرون السـابقة[٢]. فقد كانت الدولة الإسـلامية معنية ابتداءً بالنواحي الأمنية الداخلية مثل حفظ الأمن في داخل الدولة، كما تُعنى بالأمن الخارجي للدفاع عن كيان الدولة، تاركة الأنشطة والبرامج الأخرى: الشـرعية، والتعليمية، والصحية، والاقتصادية، والتجارية للمبادرات الفردية التي كان عامة الناس والموسرون في المجتمع يقومون بها من خلال المؤسسات الخيريّة الوقفية.

إن المتتبع لكتابات المؤرخين والرحالة لمعالم هذه الصورة الخيريّة الوقفيّة في معرض سردهم التاريخي والإخباري، سيجد العجب، ولكنها نصوص متناثرة بين أسطر الكتب والمخطوطات، ومن هنا تأتي الحاجة لاستظهارها وإخراجها بطابع علمي ينتظمها مساقات مجتمعية متحدة لما كان الوقف يقوم به من مجالات اجتماعية وخيريّة.

ومن هذا وذاك تأتي هذه الدراسة لتسليط الضوء على الأوقاف والمصارف الوقفيّة التي صوّرها ابن جُبير في كتابه الشهير (تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار)[٣] الذي يُختصر باسم (رحلة ابن جُبير)، سواء ذكرها مشـاهدة أم وصفًا ممن نقل خبرها له، وليس المقصد في هذه الدراسـة الرصد العددي للأوقاف والمصـارف الوقفية التي ذكرها ابـن جُبير في رحلته؛ فإن ذلك مما يطول، ولكنها إشـارات نوعية عن الأوقاف ومصارفها في الحقبة الزمنية والبقاع المكانية التي عاصرها وَمَرَّ بها في رحلته.

(١) دور الوقـف في النمو الاجتماعي وتلبية حاجات الأمة، محمد عمارة، في نـدوة (نحو دور تنموي للوقف)، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، ١٩٩٣م، ص١٥٨.

(٢) الوقف وبنية المكتبة العربية، يحيى محمود جنيد، مركز الملك فيصل للبحوث، الرياض، ١٤٠٨هـ، ص٩.

(٣) للكتاب اسم آخر ورد في بعض الطبعات وهو (رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك).

وقد قرأت كتاب الرحلة عدة مرات، وفي كل مرةٌ قمتُ بتحديد ما كان ذا صلة بالأوقاف والمصارف الوقفيـة، تمهيدًا للتعامل معها حين الكتابة ومناقشـة بعض ما ذكره في رحلته عـن الأوقاف وما يتصـل بها من مجالات صرفيـة لغلال تلك الأوقاف التي ذكرها.

وهذا الأسلوب في البحث العلمي ليس بجديد، وأعني به استقراء ظاهرة ما أو جوانب معينة مـن الحياة من خلال بعض الكُتب التاريخية تحديدًا، فعلى سـبيل المثال هناك مَنْ دَرَسَ الخدمات الوقفية مـن خلال كتاب الخطط للمقريزي[١]، وهناك مَـنْ دَرَسَ الخدمات الاجتماعيـة في بغداد خلال حقبـة معينة من خلال مجموعة من كُتب التاريخ وتراجم الأعلام، وكانت الأوقاف أبرز تلك الخدمات[٢]، وهنـاك مَـنْ دَرَسَ الأوقـاف بكونها مصـدر دخل للعلمـاء مثل كتاب الأنسـاب للسمعاني[٣]، وأظهرت تلك الدراسة عددًا من العلماء الذين كان مصدر معيشتهم هي الأوقاف، وهناك بحث عن (مدارس دمشق «ودورها» الثقافي من خلال وصف ابن بطوطة)[٤]. وكذلك دراسة عن (الأسواق والمراكز التجارية عند ابن جُبير في رحلته)[٥]. ونجد دراسـة أخرى عـن (الأوقاف والمصارف الوقفيـة في رحلة ابن بطوطة)[٦].

(١) الخدمات الوقفية من خلال كتاب الخطط للمقريزي: دراسة تاريخية، أحمد خلف فندي السبعاوي، دار الكتاب الثقافي، عمان، ١٤٣٨هـ/٢٠١٧م.

(٢) الخدمات العامة في بغداد، عبدالحسين مهدي الرحيم، وزارة الثقافة، بغداد، ١٤٣٣هـ/٢٠١٣م.

(٣) سبل عيش العلماء في ضوء كتاب الأنساب للسمعاني، عليان الجالودي، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، الجامعة الأردنية، عمان، المجلد ٨، العدد ١، ١٤٣٣هـ/٢٠١٣م.

(٤) مدارس دمشق ودورها الثقافي من خلال وصف ابن بطوطة، حسن حلمي أبو الفضل، مجلة المؤرخ العربي، اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة، العدد ٢٨، المجلد الثاني، ١٤٤١هـ/٢٠٢٠م.

(٥) الأسواق والمراكز التجارية عند ابن جُبير في رحلته، إبراهيم بن مُحَمَّد المزيني، مجلة الدرعية، الرياض، العدد ١٠، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

(٦) الأوقاف والمصارف الوقفية في رحلة ابن بطوطة: دراسـة نقدية، عبدالله بن ناصر السـدحان، مجلة أوقاف، الأمانة العامة للأوقاف، الكويت، العدد ٤٣، جمادى الأولى ١٤٤٤هـ/ ديسمبر ٢٠٢٢م.

وسيكون البحث وفق العناصر الآتية:

أولًا: تعريف بابن جُبير، ورحلته وما تتميز به.

ثانيًا: الدراسات السابقة.

ثالثًا: الأوقاف والمصارف الوقفية في رحلة ابن جُبير.

رابعًا: الخاتمة والاستنتاجات.

أولًا: تعريف بابن جُبير ورحلته

هو محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي، وقد عاش بين (٥٤٠ - ٦١٤هـ) (١١٤٥ - ١٢١٧م) ولد في بلنسية، ونزل بشاطبة، وبرع في الأدب، ونظم الشعر الرقيق، وحذق الإقراء، وابن جبير أندلسي الأصل، عاش حقبة من حياته بفاس مدرسًا للحديث وملقّنًا للتصوف[١]، وأولع بالترحل والتنقل؛ فزار المشرق ثلاث مرات، إحداها سنة ٥٧٨هـ، وهي التي ألف فيها كتاب الرحلة. توفِّي ابن جبير بالإسكندرية عام (٦١٤هـ/ ١٢١٧م) بعد أن جاوز السبعين من عمره، وبعد أن طاف الكثير من بلدان العالم الإسلامي.

ويُقال: إنه لم يصنف كتاب «الرحلة»، وإنما قيد معاني ما تضمنته، فتولى ترتيبها بعض الآخذين عنه، وقد تعلّم في بلده علومًا كثيرة، ولكن ميوله برزت في العلوم الدنيوية مما أهّله لتولي منصب كاتب لدى حاكم غرناطة أبي سعيد الموحِّدي، ولم يلبث أن كسب الشهرة «كاتبًا وشاعرًا، خلّف ديوان شعر[٢] ورسائل نثرية نالت شهرة جيدة.. وكان أديبًا بارعًا، شاعرًا مجيدًا، جرت بينه وبين طائفة من أدباء عصره في المشرق مخاطبات ظهرت فيها براعته وإجادته. ونظمه فائق، ونثره بديع، وكلامه المرسل سهل حسن»[٣]، وكان أثر تلك الذائقة الأدبية ظاهرًا في أسلوب كتاب الرحلة بشكل باذخ.

---

(١) مع ابن جبير في رحلته، عبدالقادر الصحراوي، مجلة دعوة الحق، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، العدد ١٣، بدون تاريخ،
https://www.habous.gov.ma/daouat-alhaq

(٢) والديوان محقق ومطبوع عدة طبعات.

(3) https://faculty.ksu.edu.sa/ar/halfaify/blog/276761

بدأ ابن جبير رحلته في سنة (٥٧٨هـ/١١٨٣م)، حين كان عمره ثمان وثلاثين سنة، وكان الهدف الرئيس من الرحلة كما يذكر هو الحج، وتعدّ رحلته تلك «أول رحلة حج أندلسية، وقد تكون أهم الرحلات التي يمم أصحابها شطر الديار المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة. وهي رحلة تمتاز بمكانتها في المكتبة العربية، ومن النادر أن نجد ما يماثلها أو يدانيها قيمة تاريخية وجغرافية... ورصدًا تأمليًا واسعًا»[(١)].

استغرقت رحلة ابن جبير أكثر من عامين، وأدى فيها فريضة الحج، بدأ رحلته إلى مدينة سبتة، ومنها إلى الإسكندرية، واسترسل في وصف الإسكندرية، فذكر آثارها وعمائرها ومنارها، وأعجب بما فيها من مدارس للغرباء، كما أشار إلى المستشفى الذي شيّده السلطان، وإلى الخيرات[(٢)] التي أوقفها للعناية بهم، وأشار إلى كثرة المساجد في الإسكندرية.

ثمّ انتقل إلى القاهرة وأقام فيها أيامًا؛ زار فيها المدرسة الناصرية، وأعجب برحابتها وسعتها، ثم شاهد مارستان القاهرة، والقناطر التي شيدها السلطان، ووصف أهرام الجيزة وتمثال أبي الهول. ودخل ابن جبير قوص، فكتب أنها حافلة الأسواق، متسعة المرافق، كثيرة الخلق؛ لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار المصريين والمغاربة واليمنيين والهنديين وتجار الحبشة.

ثم كان الجزء الأساس في رحلة ابن جبير، وهو زيارة مكة المكرمة والمسجد الحرام، وتأدية مناسك الحج، وزيارة المدينة النبوية؛ فقد استغرق هذا كله أكثر من ثلث الكتاب، ووفقه الله لتدوين أخبار وملاحظات ذات شأن في دراسة التاريخ والآثار الإسلامية في مكة المكرمة والمدينة المنورة. وأعانه على ذلك أنه أقام بمكة المكرمة ستة أشهر.

(١) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، مُحَمَّد بن أحمد بن جبير الأندلسي، تحقيق: علي كنعان، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٨م، ص٩.

(٢) الخيرات جمع خَيْرَةٍ، وهي الفاضلة من كل شيء. انظر: لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، مادة خير، المجلد ٤، ص٢٦٤.

أكمل ابن جبير حجته، ولكنه لم يعد إلى وطنه؛ فرافق ركب الحجاج العراقي، ومرّ بطريقه نجدًا قاصدًا الكوفة، وأخيرًا بغداد، ووصف أحياءها، ومساجدها، وأسواقها، وحماماتها، ومدارسها، ومستشفياتها الوقفيّة، وانتقل بعد ذلك إلى الموصل مارًّا بسُرَّ مَنْ رأى وتكريت، وأعجب بما في الموصل من عمائر حربية، ودينية، ومستشفيات.

ثم واصل الرحلة متنقلًا بين مدن الشام المختلفة، فوصف آثارها، وبخاصة دمشق وما فيها من صور وقفيّة، وتحدّث عن عادات أهل الشام وعن عنايتهم بالغرباء. ووصل إلى عكا، ثم إلى صقلية، ومنها إلى ثغر قرطاجنة في الأندلس، ثمّ غرناطة بعد أن غاب عنها قرابة سنتين وثلاثة أشهر.

حظيت رحلة ابن جبير بعناية كثير من المستشرقين، فترجموا القسم المختص منه بصقلية إلى الفرنسية، وترجمت الرحلة كاملة إلى الإيطالية، وطُبعت ونُشرت باللغة العربية عدة مرات، وليس هناك شك في أن هذه العناية التي حظيت بها رحلة ابن جُبير إنما تعود إلى أهميتها الخاصة بكونها وثيقة تاريخية يكتبها شاهد عيان، ويعنى فيها على وجه الخصوص بوصف المجتمعات والعادات والمستوى الفكري وأسلوب المعيشة، كما يعنى بوصف الآثار والمعالم التاريخية في البلدان التي مرّ بها، وقد ترك في رحلته صورة حية واضحة عن كل ذلك في مصر والحجاز والعراق والشام[1].

أما طبعات الرحلة باللغة العربية فقد تعددت، وأبرزها: طبعة دار صادر في بيروت، ولم يوضح تاريخ طباعتها، كما طبعتها دار الهلال في بيروت، ولم يوضح تاريخ طباعتها، إلا أن أميز الطبعات وأحدثها الطبعة الصادرة عن دار السويدي في أبو ظبي عام (١٤٢٨هـ/٢٠٠٨م) بتحقيق علي كنعان، وهي طبعة أنيقة بذل المحقق فيها جهدًا مشكورًا، لذا كان الاعتماد عليها في هذه الدراسة للكشف عن الأوقاف والمصارف الوقفية في رحلة ابن جُبير.

(١) مع ابن جبير في رحلته، مرجع سابق.

وتتصف رحلة ابن جبير بمزايا عدة، فمن ذلك على سبيل المثال:

١. أقدمية الرحلة؛ فقد كانت في أواخر القرن السادس الهجري/ الثاني عشر للميلاد، وهـذا يجعلها بمكان متقدم لرصـد المظاهر الوقفيّة فـي ذروة ازدهار الحضارة الإسلامية، فهي بمكان ملائم لتكون أساسًا لما بعدها من رحلات.

٢. عموم وسائل السفر التي استخدمها ابن جُبير في رحلته تتصف بالمسير البطيء، مما يهيئ القدرة على الرصد وعدم المرور السريع على المواقع والمشاهد، كما أن إقامته الطويلة في بعض المدن مكّنته من الرصد والوصف لما يشاهده بشكل كبير.

٣. أسـلوبه يمتاز بالكثير من الحيوية وسهولة التعبير، وعباراته سهلة، وجُمَله سلسة؛ لأنها أساسًا كُتِبت على هيئة مذكرات يومية؛ فهو يكتب باليوم والشهر في كل مشهد وكل بلدة مرَّ بها، فهو لم يكتبها في شكل كتاب[١] وهذا يُضفي عليها عفوية علميّة واقترابًا من الواقع كما هو بأكبر درجة ممكنة.

٤. ممارسته النقد لبعض المظاهر والمشـاهد التي مرّ بها أو ذكرها، فقد ذيّل أكثر من عشرين خبرًا أو مشاهدة بقوله: (والله أعلم)، أو ذكره لعبارة: «والمقيّد يبرأ من القطع بصحة ذلك»[٢] وقوله: «هذه الآثار الكريمة تلقيناها من ألسنة أشياخ من أهل البلد، فأثبتناها حسبما نقلوها إلينا، والله أعلم بصحة ذلك كله»[٣] وهي عبارات تشي بتشككه في بعض ما ذكره، وكأنه يقول: (والعهدة على الراوي).

٥. حرصه على الوصول إلى المعلومة، فلا يستنكف من السؤال عما لا يعرفه، ويذكر ذلك صراحة كما في مدينة حمص حيث جهل وجود مارستانات فيها، فقال: «وسألنا أحد الأشياخ بهذه البلدة: هل فيها مارستان على رسم مدن هذه الجهات؟»[٤] وهو أسلوب استقصائي لدى ابن جُبير في رحلته.

---

(١) نبذة عن ابن جُبير الأندلسي ورحلته (نثر قديم)، مدونة حسن بن جابر المدري الفيفي، بتاريخ ١٦/ ٧/ ١٤٤٥هـ. https://faculty.ksu.edu.sa/ar/halfaify/blog/27676

(٢) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٣١.

(٣) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص١٦٧.

(٤) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٢٠٣.

٦. يورد في كتابته الكثير من الاقتباسات الأدبية والإشارات اللطيفة التي تدل على ثقافة واسعة، وهذا أتاح له مساحة واسعة ومدى رحيبًا في الوصف التفصيلي لبعض ما شاهده من مظاهر بشرية وممارسات بين الأفراد.

٧. دقته في الوصف وتصويرها بشكل تفصيلي، وهي متكررة في الرحلة، ومن ذلك وصفه السقايات المجاورة للجامع الاموي بقوله: «ويستدير بهذا الجامع المكرم أربع سقايات، في كل جانب سقاية، كل واحدة منها كالدار الكبيرة محدقة بالبيوت الخلائية، والماء يجري في كل بيت منها، وبطول صحنها حوض من الحجر مستطيل تصب فيه عدة أنابيب منتظمة بطوله، وإحدى هذه السقايات في دهليز باب جيرون، وهي أكبرها، وفيها زائدًا على السقاية المستطيلة مع جدارها حوضان كبيران مستديران، والواحد بعيد من الآخر، ودور كل واحد منهما نحو الأربعين شبرًا، والماء نابع فيهما...»[١].

وبكل حال يمكن أن نصنف رحلة ابن جُبير بما يُعرف بالدراسة الأنثربولوجية، التي تُعرف بأنها علم دراسة الإنسان طبيعيًا واجتماعيًا وحضاريًا. وعلم الحضارات والمجتمعات البشرية، كما تُطلق على علم دراسة الشعوب وكياناتها الاجتماعية[٢].

إن رحلة ابن جبير تعد وثيقة تاريخية ذات أهمية خاصة، يجد فيها المعنيّ بدراسة التاريخ الإسلامي عنصرًا أساسيًا مُهمًا نفتقده في معظم كتب التاريخ أو كلها، فلا نجد ذلك، وهو وصف المجتمعات الإسلامية على اختلافها، ومستوى معيشتها، وطرق تفكيرها وحظها من الرقي أو الانحطاط[٣]. لذا صار كتاب (رحلة ابن جبير) من المصادر الرئيسة للباحثين في كلٍّ من التاريخ والجغرافية والأدب. فكانت رحلته ذات صفة أدبية، مع العناية بالرسم والوصف، والاهتمام بالمعاهد الثقافية وبالمدارس الدينية، ودراسة الأوضاع والعلاقات الاجتماعية، وهذا يُضفي على الرحلة صفة التنوُّع والشمول[٤].

(١) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٢١٣.
(٢) مدخل إلى علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، عيسى الشماس، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٤م، ص١٣ - ١٤.
(٣) مع ابن جبير في رحلته، مرجع سابق.
(٤) نبذة عن ابن جُبير الأندلسي ورحلته (نثر قديم)، مرجع سابق.

وعلى الرغم من كل ذلك فلم تسلم الرحلة من بعض الانتقادات لما ورد فيها من معلومات تفتقر إلى الصحة والسند التاريخي مثل حديثه عن مشاهداته في مصر، وأنه وقف على قبر معاذ بن جبل ﷺ، ومن المعروف أنه قد مات ودفن في الشام، وكذلك ذكره مشاهدته لقبر الصحابية أسماء بنت أبي بكر الصديق ﷺ، ومن المعلوم أنها لم تزر مصر في يوم من الأيام، وكذلك حين وصفه لما يسميه بالمواضع المقدسة، مثل: البيت الذي ولد فيه الرسول ﷺ، ودار السيدة خديجة ﷺ، وقبة الوحي، وكذلك مشاهداته في جبل قاسيون بدمشق عن قبور بعض الأنبياء والصالحين، مثل: مأوى السيد المسيح وأمه مريم عليهما السلام، وأن نبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام مولده في دمشق، وحديثه عن مغارة الدم في جبل قاسيون، وأنها مسرح جريمة قتل قابيل لأخيه هابيل ابني آدم، وكل هذه المعلومات ذات طابع أسطوري لا يمكن قبوله»[1].

وبكل حال؛ فما يهمنا هنا هو محاولة استنباط ما بين صفحاتها من موضوعات تتناول الأوقاف والمصارف الوقفية لاستجلاء تلك الزوايا المشرقة من جوانب الحضارة الإسلامية، وله مساس مباشر بموضوعنا وهو الأوقاف والمصارف الوقفيّة في ذلك الزمان والمكان اللذين سطّر فيهما ابن جُبير تلك المشاهدات.

ثانيًا: الدراسات السابقة

حظيت رحلة ابن جُبير بعدد من الدراسات العلميّة، وقد تناولتها من زوايا متعددة ومداخل علميّة متفرقة، وإن كان التركيز بدرجة كبيرة على الجانب الأدبي والشعري والنثري لديه، ثمّ الحديث عن الجانب الديني لدى ابن جُبير نفسه من خلال رحلته، إلا أن الساحة العلميّة تفتقر إلى دراسة تناولت الأوقاف أو المنشآت الخيريّة أو الاجتماعية من خلال رحلته، ويوجد قليلون ممن تحدثوا عن الجوانب البلدانيّة والعمرانيّة، والاجتماعية، والاقتصادية في الرحلة.

(١) رحلة ابن جبير.. قراءة تصحيحية لبعض مشاهداته.. ابن جبير في مصر والحجاز والشام، محمد فارس الجميل، المجلة العربية، الرياض، العدد ٣٢٥١، ١٤٣٩هـ/٢٠١٧م.

ولا شك في أن الدراسات البلدانية والعمرانية ستكون هي الأقرب لمجال هذه الدراسة إذا وجدت، لكنها محدودة جدًا، ثمّ الدراسات الاقتصادية بالنظر إلى الجانب الاقتصادي للأوقاف، ولكن لم يتضح وجود سوى دراسة واحدة تتحدث عن الأسواق التجارية في كتاب الرحلة.

هنا أستعرض الدراسات التي تمكن الباحث من الوصول إليها، وفق محاور أساسية: الأدبية والدينية، وأخيرًا الاجتماعية والاقتصادية والبلدانيّة على النحو الآتي:

١. دراسات ركزت على الجانب الأدبي في رحلة ابن جُبير أو لدى ابن جُبير نفسه، ومنها:

- دراسة (شعرية الوصف في أدب الرحلة: رحلة ابن جُبير أنموذجًا)، وهي رسالة ماجستير أعدتها وناسة بودرع عام (١٤٣٩هـ/٢٠١٩م)، وهي تركز على الجانب الشعري واستشهادات ابن جُبير ببعض الأبيات من منظومه أو محفوظه في الكثير من المواقف التي مرّ بها خلال رحلته[١].
- دراسة (رحلة ابن جُبير: دراسة سردية)، وهي رسالة ماجستير أعدتها سمية شاشة عام (١٤٣٨هـ/٢٠١٨م)، وهي محاولة من الباحثة للتعرف على النظام السردي الذي اتبعه ابن جُبير في رحلته، وكيف استطاع توظيف تقنيات السرد في رحلته، والتعرف على الخصائص الفنية التي تميز رحلة ابن جُبير[٢].
- دراسة (التحيز اللغوي في رحلة ابن جُبير إلى المشرق العربي) قامت بها نورهان عبدالرؤوف أحمد مُحَمَّد، ونشرت عام (٢٠٢٢م/ ١٤٤٣م)، وهي تهدف إلى الكشف عن الوسائل اللغويّة التي وظّفها ابن جُبير في تقديم صورة المشرق العربي من خلال تحليل نصوص الرحلة وتفكيك عباراتها والتعرف على مدلولاتها[٣].

---

(١) شعرية الوصف في أدب الرحلة: رحلة ابن جُبير أنموذجًا، وناسة بودرع، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية اللغات والآداب، جامعة مُحَمَّد الصديق بن يحيى، الجزائر، ١٤٣٩هـ/٢٠١٩م.

(٢) رحلة ابن جُبير: دراسة سردية، سمية شاشة، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم اللغة والادب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة قاصدي مرباح، الجزائر، ١٤٣٨هـ/٢٠١٨م.

(٣) التحيز اللغوي في رحلة ابن جُبير إلى المشرق العربي، نورهان عبدالرؤوف أحمد مُحَمَّد، مجلة كلية الآداب بقنا، جامعة جنوب الوادي، مصر، العدد ٥٥ أبريل ١٤٤٣هـ/٢٠٢٢م.

- دراسة (الأبعاد الفنية والفكرية في كتاب «رحلة ابن جُبير» لابن جبير الأندلسي)، وهي رسالة دكتوراه أعدها رضوان غربي عام (١٤٤٤هـ/٢٠٢٣م)، وهي تركز على الجانب الفني التي تكتنزها الرحلة، ومحاولة استجلاء الأبعاد الفكرية التي سعى ابن جُبير إلى عرضها في رحلته، وما مدى تأثره بنواحي الحياة الفكرية في البلدان التي زارها والروافد الثقافية التي وظّفها في الرحلة[١].
- دراسة (جمالية المكان في رحلة ابن جُبير) قام بها أحمد عبدالرزاق خليل، ونشرت عام (١٤٣٢هـ/٢٠١١م)، وهي تركز بوضوح على رصد تجليات المكان واستنباط جمالياته من خلال تحليل النص السردي لكتاب الرحلة[٢].

٣. دراسات ركزت على البعد الديني في رحلة ابن جُبير أو لدى ابن جُبير نفسه، ومنها:

- دراسة (الحس الديني في رحلة ابن جُبير) قام بها سيف المحروقي وشفيق الرقب ونشرت عام (١٤٣٩هـ/٢٠١٩م) وأظهرت الدراسة طغيان الشعور الديني لدى ابن جُبير خلال رحلته، وتجلى ذلك في مظاهر متعدّدة، من أبرزها اهتمامه بدرجة كبيرة بوصف المظاهر الدينيّة في البلدان التي زارها، ونقل مشاهد تستجيش المشاعر لزيارة البيت الحرام في أثناء تأديته فريضة الحج، إضافة إلى إعجابه ببعض الشخصيّات الإسلاميّة لا سيّما صلاح الدين الأيّوبيّ الّذي بسط العدل في الرعيّة، وجاهد الفرنجة، وهزم جيوشهم، واستردّ القدس منهم[٣].
- دراسة (واقع المذهب المالكي في الحجاز من خلال رحلة ابن جبير) قام بها نور الدين بوذينة، ونشرت عام (١٤٤٤هـ/٢٠٢٣م)، وهدفت إلى الكشف عن واقع المذهب المالكي في الحجاز من خلال كتابات ابن جُبير في الرحلة، والتعرف على الحضور

(١) الأبعاد الفنية والفكرية في كتاب «رحلة ابن جُبير» لابن جبير الأندلسي، رضوان غربي، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب واللغات، جامعة مُحَمَّد خيضر، بسكرة، الجزائر، ١٤٤٤هـ/٢٠٢٣م.

(٢) جمالية المكان في رحلة ابن جُبير، أحمد عبدالرزاق خليل، مجلة مداد الآداب، كلية الآداب، الجامعة العراقية، بغداد، العدد الأول، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م.

(٣) الحس الديني في رحلة ابن جُبير، سيف مُحَمَّد المحروقي وشفيق مُحَمَّد الرقب، مجلة كلية عين شمس، العدد الخامس والعشرون (الجزء الثالث)، ١٤٣٩هـ/٢٠١٩م.

العلمي للعلماء المالكية المغاربة في الحجاز، وطبيعة العلاقة بين المذهب المالكي وبقية المذاهب الفقهية الاخرى[١].

- دراسة (الأبعاد الدينية والاجتماعية في رحلة ابن جُبير الأندلسي) قام بها رضوان غربي وفاطمة دخية، ونشرت عام (١٤٤١هـ/٢٠٢١م)، والدراسة تركز على محاولة إبراز تجليات الأبعاد الدينية في الرحلة، من خلال الوقوف على بعض المعالم والرموز الدينية ومختلف العادات والطقوس التي استرعت انتباه ابن جُبير في رحلته، وتسليط الضوء على البعد الاجتماعي بالتركيز على اللباس مظهرًا من المظاهر الاجتماعية التي تشكل صورة خاصة لكل مجتمع خاصة في المناسبات الاجتماعية[٢].
- دراسة (صورة الشرق والغرب من خلال رحلة ابن جُبير) قامت بها فتيحة صحراوي، ونشرت عام (١٤٤٣هـ/٢٠٢٢م)، والدراسة تركز التعرف على طبيعة العلاقة بين الشرق المسلم والغرب المسيحي، من خلال رصد المظاهر والسلوكيات للأفراد والمجتمع بشكل عام من خلال عامل اللغة والعلاقة التصالحية بين المسلمين وغيرهم؛ مثل حضور احتفالاتهم ومناسباتهم الاجتماعية والدينية، وكذا لباس غير المسلمين ومدى تشابهه مع لباس المسلمين للرجال والنساء[٣].

٣. الدراسات التي تعرضت للجانب: البلداني، والاقتصادي، والاجتماعي، وهي قليلة قياسًا على الدراسات التي ركزت على الجانب الأدبي أو الديني، ومن ذلك:

- دراسة (الأسواق والمراكز التجارية عند ابن جُبير في رحلته) قام بها الدكتور إبراهيم بن مُحَمَّد المزيني، ونشرت عام (١٤٢١هـ/٢٠٠٠م)، وهدفت إلى رصد ملامح الحركة التجارية في الأسواق والمراكز التجارية التي مرّ عليها ابن جُبير في رحلته،

(١) واقع المذهب المالكي في الحجاز من خلال رحلة ابن جبير، نور الدين بوذينة، مجلة النوازل الفقهية والقانونيّة، مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة، الاغواط، الجزائر، المجلد ٧، العدد ٢، ١٤٤٤هـ/٢٠٢٣م.

(٢) الأبعاد الدينية والاجتماعية في رحلة ابن جُبير الأندلسي، رضوان غربي وفاطمة دخية، مجلة قراءات، جامعة بسكرة، الجزائر، المجلد ١٣، العدد ١، ١٤٤١هـ/٢٠٢١م.

(٣) صورة الشرق والغرب من خلال رحلة ابن جُبير، فتيحة صحراوي، المجلة المغاربية للمخطوطات، مخبر المخطوطات جامعة الجزائر، الجزائر، المجلد ١٨، العدد ١، ١٤٤٣هـ/٢٠٢٢م.

وقد أشارت إشارات عابرة إلى الخانات التي كانت تُعد بمثابة نُزل للمسافرين، وفيها جانب وقفي، ثمّ تطورت وظيفتها بحيث صارت بمثابة أمكنة لممارسة الأعمال التجارية، بالإضافة إلى وظيفتها الأساس، ونشأتها الوقفيّة[١].

- دراسة (حلب والموصل في العهد الأيّوبيّ من خلال رحلة ابن جُبير: دراسة مقارنة في الجانب العمراني) قام بها خالد يوسف صالح، ونشرت عام (١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٩م)، وهدفت إلى رصد النسيج العمراني لمدينتي حلب والموصل من خلال وصف ابن جُبير لما شاهده في المدينتين خلال رحلته من منشآت عمرانية، وكان من ضمن تلك المشاهدات العمرانية بعض الأوقاف مثل: البيمارستانات، والمدراس، والمشاهد، وبخاصة ما يُعرف بـ(تل التوبة) والرباط الكبير في ذلك التل[٢].
- دراسة (معلومات ابن جُبير عن الموصل: دراسة تحليلية) قام بها طه خضر عبيد، ونشرت عام (١٤٣٩هـ/٢٠١٧م)، وهدفت الدراسة إلى التعرف على واقع مدينة الموصل من خلال وصف ابن جُبير لما شاهده في المدينة خلال رحلته، من منشآت عمرانية، وكان من ضمن تلك المشاهدات العمرانية بعض الأوقاف مثل: المدراس، والمشاهد، وبخاصة ما يُعرف بـ(تل التوبة)[٣].
- دراسة (تجليات صورة المرأة وتمثلاتها في رحلة ابن جُبير الأندلسي) قام بها رضوان غربي، ونشرت عام (١٤٤٤هـ/٢٠٢٣م)، وتهدف إلى رصد صورة المرأة وما تتميز به من خصوصية في الملبس والتدين والوظائف التي تقوم بها للحفاظ على النسيج الاجتماعي، من خلال استنطاق رحلة ابن جُبير، وقد اتضح تنوع صورة المرأة

(١) الأسواق والمراكز التجارية عند ابن جُبير في رحلته، إبراهيم بن مُحَمَّد المزيني، مجلة الدرعية، الرياض، العدد ١٠، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

(٢) حلب والموصل في العهد الأيّوبيّ من خلال رحلة ابن جبير (دراسة مقارنة في الجانب العمراني)، خالد يوسف صالح، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، جامعة الموصل، العراق، ٢٠٠٩م، العدد ١، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٩م.

(٣) معلومات ابن جُبير عن الموصل: دراسة تحليلية، طه خضر عبيد، مجلة دراسات موصلية، جامعة الموصل، العراق، العدد ٤٥، ١٤٣٩هـ/٢٠١٧م.

واختلاف ملامحها من مجتمع لآخر من المجتمعات التي زارها ابن جُبير، وارتباط ذلك بطبيعة التكوين الثقافي والاجتماعي الذي شكّل صورة المرأة[١].

- دراسة (النزعة الانتقادية في رحلة ابن جُبير) قام بها مُحَمَّد العمايرة وشفيق الرقب، ونشرت عام (١٤٣٠هـ/٢٠١٠م)، وهدفت إلى تتبع المظاهر التي انتقدها ابن جُبير في رحلته، وبخاصة المظاهر التي لم يألفها في بلاده المغرب، ومن ثم كان منه الانتقاد لها، وركز الدراسة على رصد النقد السياسي والإداري والاجتماعي[٢].

التعليق على الدراسات السابقة:

يتضح من العرض للدراسات السابقة وجود عدد من الدراسات عن رحلة ابن جُبير أو عن ابن جُبير نفسه، وإن كان تركيزها ينصب على جانبين اثنين، هما: الجانب الأدبي في حياة ابن جُبير الذي تبدى من خلال تدوينه للرحلة، والجانب الآخر هو الديني وتدين ابن جُبير وأثر ذلك على كتابه الرحلة، في حين تقل جدًا الكتابات عن الجوانب الأخرى مثل: الجانب الاجتماعي أو الاقتصادي أو البلداني والعمراني.

ويغلب على الدراسات السابقة كونها حديثة في إعدادها، وكأن الاهتمام بالرحلة وكاتبها لم يُلتفت له من الباحثين العرب والمسلمين إلا مؤخرًا، وتحديدًا في السنوات الخمس الماضية.

ومما يلاحظ تركز إجراء الدراسات في الجامعات الجزائرية، فهناك اهتمام بالغ بكتاب الرحلة وكاتبها لدى الباحثين في الجزائر، على الرغم من أنه لم يمكث في بلدان جزائرية طويلًا أو يتعرض لها بالكتابة كما في العواصم الإسلامية الأخرى.

وتلتقي تلك الدراسة مع الدراسات التي حصلت على الجانب الاقتصادي أو البلداني والعمراني في الرحلة، كما في دراسة (الأسواق والمراكز التجارية عند ابن جُبير في

(١) تجليات صورة المرأة وتمثلاتها في رحلة ابن جُبير الأندلسي، رضوان غربي، مجلة إشكالات في اللغة والادب، جامعة تامنغست، الجزائر، المجلد ١٢، العدد ٢، ١٤٤٤هـ/٢٠٢٣م.

(٢) النّزعة الانتقاديّة في رحلة ابن جبير، مُحَمَّد نايف العمايرة وشفيق مُحَمَّد الرقب، مجلة دراسات (العلوم الإنسانية والاجتماعية) الجامعة الأردنية، عمان، المجلد ٣٧، العدد ٣، ١٤٣٠هـ/٢٠١٠م.

رحلته)، ودراسة (حلب والموصل في العهد الأيّوبيّ من خلال رحلة ابن جُبير: دراسة مقارنة في الجانب العمراني)، ودراسة (معلومات ابن جُبير عن الموصل: دراسة تحليلية)، بسبب القرب الموضوعي من الأوقاف بكونها منشآت عمرانية أو مصارف اقتصادية.

وقد استفاد الباحث من هذه الدراسات الثلاث الأخيرة بما ورد بها من معلومات عن تلك الأماكن محل الدراسة وهي مدينة الموصل وحلب، وكذلك المنشآت العمرانية والاقتصادية كالخانات حيث هي منشآت عمرانية وقفيّة.

ثالثًا: الأوقاف والمصارف الوقفية في رحلة ابن جُبير

يحسن في البداية أن نفرق بين الأوقاف التي هي العين الموقوفة، وبين مصارفها، فالوقف قد يكون مُنشأة معمارية مثل: المسجد، والمدرسة، أو البيمارستان (المشفى)، أو دارًا للأيتام، وهذه غالبًا موقوفة، ولا يمكن التصرف فيها؛ لأنها خرجت من ملك الواقف إلى ملك الله ﷻ، وهي غير مُدرة بنفسها، ولا يوجد لها غلة، وتحتاج إلى مصادر مساندة لها لكي تستمر في رسالتها، كان يكون لها ضياع موقوفة عليها، أو مزارع، أو حوانيت، أو قرى زراعية، أو دور، أو طواحين تُدرُ عليها غلة لتستمر في أداء رسالتها وتحقيق أهدافها[1].

وهناك أوقاف تكون مدرة بنفسها، مثل: الدور والبيوت، أو البساتين، أو المزارع، أو الدكاكين، أو المخازن، أو المطاحن، فتكون لها غلة سنوية ومصارف محددة يحددها الواقف حين أوقفها، كأن تكون للصرف على الفقراء، والمساكين، أو طلبة العلم، أو الأيتام، أو المرضى، أو عابري السبيل والمسافرين، أو المنقطعين للعبادة، كما سنرى في الأوقاف التي وصفها ابن جُبير، وسيكون تناول الأوقاف والمصارف وفق تصنيفات رئيسة وبشكل مجمل، مع التركيز على بعض الاستنتاجات الوقفية من رحلة ابن جُبير.

أما الأوقاف التي ذكرها ابن جُبير وشاهدها، أو استفاد منها، أو ذكرت له في رحلته، فيمكن تصنيفها في المجالات الرئيسة الآتية:

(١) الأوقاف والمصارف الوقفية في رحلة ابن بطوطة: دراسة نقدية، مرجع سابق، ص١٦٩.

١. الأوقاف ذات الصبغة الدينية التعبدية:

ومن هذه الأوقـاف: الأربطة، والزوايـا، والخانقات، وهي وإن تعـددت تعاريفها وتوصيفاتها إلا أنها تُعرف بأنها مكان مخصص للعبادة، ويأوي إليه الغرباء، وابن جُبير يذكرها على أنها شـيء واحد، وأنها أسماء لمكان وظيفته الدينية والاجتماعية واحدة، فيقول: «وأما الرباطات التي يسمونها الخوانق فكثيرة، وهي برسم الصوفية، وهي قصور مزخرفة، يطرد في جميعها الماء على أحسن منظر»[١].

مـع ملاحظة أن وظيفة كل منها قد تغيرت مع مرور الوقت، فعلى سـبيل المثال نجد الرُبط وهـي الأماكن التي أُعِدَّتْ على الثغـور للمجاهدين قد تحولت مع مرور الوقت إلى أماكن للمتفرغين للعبادة، فكان ينقطع فيها بحجة التفرغ للعبادة، بدليل وجودها في أماكن بعيدة عن الثغور الإسلامية وحدودها مع الدول الأخرى التي كانت المهد الأول لظهورها، وهذا التحول التدريجي في دور الرُبط أدى بها إلى تحقيق أثر اجتماعيّ، ذلك أنها غدت مـأوى للغرباء والصوفية وهم الأظهر، ثمّ أصبحت تتركز حول القبور والمشاهد البدعية[٢].

ويؤكد ذلك ابن جُبير حين يصف بعض الأربطة، وأن أبرز المستفيدين منها ومن أوقافها هم الصوفية، ويصـف واقعهم مع هذه الخدمات بأنهم «الملوك بهذه البلاد - دمشـق -؛ لأنهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها، وفرغ خواطرهم لعبادته من الفكرة في أسباب المعايش»[٣]. وهذا الرغد المعيشي لأرباب الصوفية المتكئ على الأوقـاف الغزيرة رغّب النـاس في طرقهم والعيـش في أربطتهـم وزواياهم لعلهم يظفرون بشـيء من ذلك المسـتوى المعيشـي الذي لم يكن متوافر لعامة قطاعات المجتمع الأخرى[٤].

(١) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٢٢٢.

(٢) الأوقاف والمصارف الوقفية في رحلة ابن بطوطة: دراسة نقدية، مرجع سابق، ص١٦٩.

(٣) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٢٢٢.

(٤) أسباب انحسار البدع في القرن الرابع عشر، مركز سلف للبحوث والدراسات، مكة المكرمة، بدون تاريخ، ص٢.

وهذا النوع من الأوقــاف (الأربطة) لم يكن له ذكر كبير في رحلة ابن جُبير، ولم يحفل بها كثيرًا، وقد يكون السبب في ذلك أنه لم يسكن فيها كما فعل ابن بطوطة في رحلته، فلم يذكر ابن جُبير قطُّ أنه نام في رباط، إلا مرة واحدة خارج مدينة الموصل بالعراق[١]، وفي مرة أخرى نام في مســجد حين كان في غير أرض المسلمين ولم يكن ثمة خان؛ ففي جزيرة صقلية بمنطقة يُقال لها (قصر ســعد)، وهو «قصر على ســاحل البحر مشــيد البناء عتيقه قديم الوضع من عهد ملكة المسلمين للجزيرة، وفي أعلاه مسجد من أحسن مســاجد الدنيا بهاءً، مستطيل ذو حنايا مســتطيلة، مفروش بِحُصُرٍ نظيفة، لم ير أحسن منها صنعة، فبتنا في هذا المسجد أحسن مبيت وأطيبه، وسمعنا الأذان، وكنا قد طال عهدنا بسماعه»[٢]. وأشار مرة أخرى إلى أنه بات في دار الحديث غربــي الجامع الأمويّ بدمشــق[٣]، ودار الحديــث تلك كما يصفهــا النعيمي في كتابه (الدارس في تاريخ المــدارس) هي «دار الحديث النورية التي بناها نور الدين محمود زنكي، ووقف عليها وعلى من بها من المشتغلين بعلم الحديث وقوفًا كثيرة»[٤] ولم يذكر ابن جُبير سبب سكناه في دار الحديث تلك.

فقط هذه المواضع الثلاثة التي كانت مبيته ومأواه غير الخانات، وإلا الغالب على مأوه طوال رحلته هي الخانات كما سيأتي ذكرها في الأوقاف الخدمية.

أشار ابن جُبير إشــارة عابرة إلى رباطين في مكة المكرمة، أحدها ذكر أنه رباط للصوفية قريب من الحرم المكي الشريف، فقد عدّد أبواب الحرم الشريف، وقال: «باب صغير بإزاء بني شيبة، شــبه خوخة الأبواب: لا اسم له. وقيل: إنه يسمى باب الرباط؛ لأنه يدخل منه لرباط الصوفية»[٥]، وأشار إلى رباط آخر قريب من الحرم حين أخذ في

(١) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص١٨٥.

(٢) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٢٦٠.

(٣) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٢٠٤.

(٤) الدارس في تاريخ المدارس، عبدالقادر النعيمي الدمشقي، تحقيق: عمار مُحَمَّد النهار، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٤م، ص٤٩. وقال محقق الكتاب وهو معاصر: تقع في سوق العصرونية الشهير، وقد أصابها الحريق الذي أصاب المنطقة سنة ١٣١٠هـ، وهي اليوم مقفلة ومتروكة عرضة لكل شيء.

(٥) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٧٩.

وصف ما حول الحرم الشريف قائلًا: «ويطلُّ على الحرم الشريف جبل أبي قبيس، وهو في الجهة الشـرقية، يقابل ركن الحجر الأسـود، وفي أعلاه رباط مبارك فيه مسجد، وعليه سطح مشرف على البلدة الطيبة»[(١)].

أورد ابن جُبير بعين الإعجاب رباطًا عظيمًا في مدينة الموصل بالعراق، حيث وصفه قائلًا: «ومما خص الله به هذه البلدة أن في الشرق منها إذا عبرت دجلة على نحو الميل تل التوبة، وهو التل الذي وقف به يونس عليه السلام بقومه ودعا ودعوا حتى كشف الله عنهم العذاب... وفي هذا التل بناء عظيم هو رباط يشتمل على بيوت كثيرة ومقاصر ومطاهر وسـقايات، يضم الجميع باب واحد... فيخرج الناس إلى هـذا الرباط كل ليلة جمعة، ويتعبدون فيه، وحول هذا الرباط قرى كثيرة»[(٢)]، وسبب عظمة هذا الرباط وشهرته كما يُفهم من وصف ابن جُبير له ارتباطه بمشهد ذا بُعدٍ ديني وهو ما يُسمى (تل التوبة)[(٣)].

وفي مدينة أخرى من مدن العراق، وهي مدينة (مدينة رأس العين)، أورد ابن جُبير وصفًا رائعًا لرباط تحيط به المياه من ثلاثة جوانب، ويكاد يُفضلها على ما في الأندلس من الحُسن، فيقول: «وينقسم ماء هذه العين نهرين: أحدهما آخذ يمينًا، والآخر يسارًا. فالأيمن يشـق خانقة مبنية للصوفية والغرباء بإزاء العين، وهي تسـمى الرباط أيضًا، والأيسر ينسرب على جانب الخانقة، وتفضي منه جداول إلى مطاهرها ومرافقها المعدة للحاجة البشرية.. وبمقربة من هذه الخانقة بحيث تناظرها مدرسة بإزائها حمام، وما أرى في موضوعات الدنيا مثل موضوع هذه المدرسة؛ لأنها في جزيرة خضراء، والنهر يستدير بها من ثلاثة جوانب، والمدخل إليها من جانب واحد، وأمامها ووراءها بستان، وبإزائها دولاب يلقي الماء إلى بساتين مرتفعة عن مصب النهر. وشأن هذا الموضع كله

(١) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٨٢.

(٢) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص١٨٥.

(٣) تل التوبة ذكره ياقوت الحموي بقوله: «موضع مقابل مدينة الموصل في شرقي دجلة متصلة بنينوى، وهو تل فيه مشـهد يُزار ويتفرج فيه أهل الموصل كل ليلة جمعة، قيل: إنّه سُمي تل توبة لأنه لما نزل بأهل نينوى العذاب، وهم قوم يونس النبي عليه السلام اجتمعوا بذلك التل وأظهروا التوبة وسألوا الله العفو، فتاب عليهم وكشف عنهم العذاب». وهو مطابق لما ذكره ابن جُبير في رحلته. انظر: معجم البلدان، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، المجلد الثاني، ص٤١.

عجيب جدًا، ولله القدرة في جميع مخلوقاته... فكان مقامنا بها ذلك اليوم نزهة لم نختلس في سفرنا كله مثلها»[١].

ويحدد ابن جُبير سبب كثرة الأربطة الوقفية بشكل عام التي شاهدها في بلاد الشام، فيقول واصفًا بلاد الشام بأن: «الأوقاف تكاد تستغرق جميع ما فيه»[٢]. أما عن سبب بقاء تلك الأربطة تحديدًا لمدد طويلة وبقاؤها لأعمار مديدة فيُرجع ابن جُبير ذلك إلى كثرة الأوقاف الموقوفة عليها من قبل السلاطين والأمراء وزوجاتهم والنساء ذوات الأقدار، وأن ذلك سبب رئيسٌ لطول عمر تلك الأربطة، وكثرة ساكنيها وتنعمهم فيها، فيصف ذلك بقوله: «ولكل مشهد من هذه المشاهد أوقاف معينة من بساتين وأرض بيضاء ورباع.. وكل مسجد يستحدث بناؤه أو مدرسة أو خانقة يعين لها السلطان أوقافًا تقوم بها وبساكنيها والملتزمين لها، وهذه أيضًا من المفاخر المخلدة. ومن النساء الخواتين ذوات الأقدار من تأمر ببناء مسجد أو رباط أو مدرسة، وتنفق فيها الأموال الواسعة، وتعيّن لها من مالها الأوقاف. ومن الأمراء من يفعل مثل ذلك»[٣].

وفي دمشق وصف ابن جُبير أحد الخانقات، وكيف نشأ وسبب نشأته، ويحدد موضعه وإن كان بصيغة التمريض، فيذكر أنه شاهد خانقاه للصوفية في موضع الدار المنسوبة لعمر بن عبدالعزيز فيوردها قائلًا: إنها في «الدهليز الذي في الباب الشمالي المعروف بباب الناطفيين، وأن الذي اشتراها وبناها وجعل لها الأوقاف الواسعة وأمر بأن يدفن فيها وأن يختم على قبره القرآن كل جمعة وعيّن من تلك الأوقاف لمن يحضر ذلك كل جمعة رطلًا من خبز الحواري، رجل يعرف بالسميساطي»[٤].

ثمّ أورد ابن جُبير قصة طويلة عن سبب إنشاء السميساطي للخانقاه، ذلك أنه رعى أحد الغرباء وجده مريضًا مُنقطعًا في الطريق، فأخذه إلى بيته ومرّضه ورعاه،

(١) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص١٩١.
(٢) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٢١٥.
(٣) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٢١٥.
(٤) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٢٢٧. وقد عرف ابن جُبير (سميساط) بأنها بلدة من بلاد العجم

فلما حانت وفاة الغريب أخبره بقصته وسبب هروبه من بغداد وأرشده على كنز جزاء ما قام به من رعاية له، فذهب السميساطي إلى المكان الذي حدده الغريب، وعثر على الكنز، واستخرج منه ذخائر عظيمة الشأن، فدسها في أحمال متاع ابتاعها، وخرج إلى دمشق، فابتاع الدار المذكورة المنسوبة لعمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه، وبناها خانقة للصوفية، وابتاع لها الأوقاف ضياعًا ورباعًا، وجعلها برسم الصوفية، وأوصى بأن يدفن فيها وأن يختم القرآن على قبره كل جمعة، فتغص الخانقة بالقراءة كل جمعة، فإذا ختموا القرآن دعوا له، وانصرفوا، واندفع لكل واحد منهم رطل من الخبز»[(١)].

٣. الأوقاف التعليمية والمدارس والمكتبات:

المقصود بهذه الأوقاف ما كان له ارتباط بالعلم، والتعلم، والمدارس، وتدريس القرآن، وقراءته، وإقرائه، أو خزائن للكتب الموقوفة على مسجد أو مدرسة ما أو رباط أو لطلبة العلم في حلقات التعليم في المساجد التي زارها ابن جُبير.

بداية لا تخطئ العين انبهار ابن جُبير بما يقدم من خدمة للعلم والمتعلمين من خلال المدارس التي أنشأها صلاح الدين الأيّوبيّ، فيتحدث عن ذلك بعين الاعجاب المنقطع النظير واصفًا تلك الرعاية للعلم والمتعلمين في الإسكندرية بقوله: «من مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه: المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد، يفدون من الأقطار النائية، فيلقى كل واحد منهم مسكنًا يأوي إليه، ومدرّسًا يعلمه الفن الذي يريد تعلمه وإجراءً يقوم به في جميع أحواله، واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين، حتى أمر بتعيين حمّامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك، ونصب لهم مارستانًا... ومن أشرف هذه المقاصد أيضًا أن السلطان عيّن لأبناء السبيل من المغاربة خبزتين لكل إنسان في كل يوم بالغًا ما بلغوا، ولهذا كله أوقاف من قبله»[(٢)].

(١) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٢٢٨.

(٢) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٢٦.

ولا يغيب ذلك الانبهار من ابن جُبير بالمدارس التي أنشأها صلاح الدين الأيّوبيّ في مصر، وأوقف عليها الأوقاف الطائلة للصرف عليها، فيصف إحداها في القاهرة قائلًا: «وبني مدرسة لم يعمر بهذه البلاد مثلها، لا أوسع مساحة، ولا أحفل بناء، يخيل لمن يطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته، بإزائها الحمّام، إلى غير ذلك من مرافقها، والنفقة عليها لا تحصى، وسلطان هذه الجهات صلاح الدين يسمح له بذلك كله، ويقول: زد احتفالًا وتأنقًا، وعلينا القيام بمؤونة ذلك كله، فسبحان الذي جعله صلاح دينه كاسمه»[(١)].

ومن مآثر صلاح الدين أنه أن خصص لطلبة العلم المغاربة كما يذكر ابن جُبير مسجدًا خاصًا يتعلمون فيه، وليس هذا فحسب، بل جعل إدارة شؤونهم لهم، فيختارون من يرضونه يكون هو المسؤول عنهم، ويصف ذلك ابن جُبير بقوله: «وبين مصر والقاهرة المسجد الكبير المنسوب إلى أبي العباس أحمد بن طولون، وهو من الجوامع العتيقة الأنيقة الصنعة الواسعة البنيان، جعله السلطان مأوى للغرباء من المغاربة يسكنونه ويحلقون فيه، وأجرى عليهم الأرزاق في كل شهر. ومن أعجب ما حدثنا به أحد المتخصصين منهم أن السلطان جعل أحكامهم إليهم، ولم يجعل يدًا لأحد عليهم. فقدموا من أنفسهم حاكمًا يمتثلون أمره، ويتحاكمون في طوارئ أمورهم عنده، واستصحبوا الدعة والعافية، وتفرغوا لعبادة ربهم، ووجدوا من فضل السلطان أفضل معين على الخير الذي هم بسبيله»[(٢)].

كما أنه «أنه أمر بعمارة محاضر ألزمها معلمين لكتاب الله ﷻ، يعلمون أبناء الفقراء والأيتام خاصة، وتجرى عليهم الجراية الكافية لهم»[(٣)].

(١) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٣٢. لقد كان ابن جُبير معجبًا بصلاح الدين أيما إعجاب، تصاغر أمامه كل سلاطين تلك المناطق، فيصف ذلك بقوله: «وهذه البلدة لسلاطين شتى كملوك طوائف الأندلس، كلهم قد تحلى بحلية تنسب إلى الدين، فلا تسمع إلا ألقابًا هائلة، وصفات لذي التحصيل غير طائلة، قد تساوى فيها السوقة والملوك، ليس فيهم من اتسم بسمة به تليق، أو اتصف بصفة هو بها خليق، إلا صلاح الدين صاحب الشام وديار مصر والحجاز واليمن، المشتهر بالفضل والعدل، فهذا اسم وافق مسمّاه، ولفظ طابق معناه» انظر: تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص١٨٩.

(٢) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٣٦.

(٣) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٣٦.

لذا لا غرو أن يكون من نتيجة تلك المدارس الوقفيّة السنيّة التي أنشأها صلاح الدين الأيّوبيّ أن زال المذهب الشيعي من مصر والشام، فالمدارس الضخمة والكثيرة والصرف السخي عليها كان له إسهامات في استقطاب كثير من العلماء من مختلف البلدان الإسلامية، «فالمدارس التي شُيدت في عهده، كانت في أغلبها ضخمة وواسعة، تتوفر فيها جميع وسائل الراحة، كما أنّ المدرسين فيها كانوا يتقاضون رواتب عالية، والتدريس فيها كان على مذاهب أهل السنة. فكان له الفضل الكبير في بعث ونشر مذهب أهل السنة فقهًا وعقيدة في أغلب البلاد العربية، لاهتمامه الزائد بالفقهاء والإكثار من إنشاء المدارس»[١]، ورسم الطريق لمن بعده في استمرار ذلك الأثر من خلال الوقف والاستكثار منه للصرف على تلك المدارس بما يضمن تواصل إسهامها في المحافظة على المكتسبات الثقافية والعقدية التي حصلت منها.

أما في بغداد فَقُدّرَ عدد مدارسها بنحو «الثلاثين، وما منها مدرسة إلا وهي يقصر القصر البديع عنها، وأعظمها وأشهرها النظامية[٢] وهي التي ابتناها نظام الملك، وجدّدت سنة أربع وخمسمئة، ولهذه المدارس أوقاف عظيمة وعقارات محبسة تتصير إلى الفقهاء المدرسين بها، ويجرون بها على الطلبة ما يقوم بهم، ولهذه البلاد في أمر هذه المدارس والمارستانات شرف عظيم وفخر مخلد، فرحم الله واضعها الأول، ورحم من تبع ذلك السنن الصالح»[٣].

(١) جهود صلاح الدين الأيّوبيّ في إحياء المذهب السنّي في مصر والشام (٥٦٤ - ٥٨٩هـ/ ١١٦٩ - ١١٧٢م)، محمد الرحيّل غرايبة، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات (العلوم الإنسانية والاجتماعية)، جامعة مؤتة، المجلد ١٠، العدد ٣، ١٤٢٥هـ/١٩٩٥م.

(٢) المدرسة النظامية بناها نظام الملك وزير السلاجقة في بغداد سنة ٤٥٨هـ، وفتح لها عدة فروع في بلخ ونيسابور والموصل، واختار لها مدرسين علماء من أعلام عصره، وأجرى عليهم الأرزاق بسخاء، وذلّل أمامهم الصعاب، وهي تقع على الضفة اليسرى لنهر دجلة، وامتازت بالفخامة والجمال وكثرة الرخام المستخدم في البناء، واشترى ضياعًا وخانات وحمامات، وبنى حولها الأسواق، وجعل أرباح كل ذلك وقفًا عليها، وجعل التعليم فيها مجانًا.
انظر: المدرسة النظامية صورة من صور الحياة الثقافية في العالم الإسلامي خلال العصر الوسيط، عصام منصور صالح، مجلة الساورة للدراسات الإنسانية والاجتماعية، جامعة طاهري مُحَمَّد بشار، الجزائر، العدد الخامس، جوان ٢٠١٧م.

(٣) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص١٧٩.

وحضر ابن جُبير بعض المجالس العلميّة والوعظية في المدرسة النظامية، ومنهم الإمام رضي الدين القزويني رئيس الشافعية، وفقيه المدرسة النظامية، وكذلك الإمام ابن الجوزي.

ويصف ابن جُبير ابن الجوزي بأسلوب أدبي راق بقوله: «فشاهدنا مجلس رجل ليس من عمرو ولا زيد، وفي جوف الفرا كلّ الصيد، آية الزمان، وقرة عين الإيمان، رئيس الحنبلية، والمخصوص في العلوم بالرتب العلية، إمام الجماعة، وفارس حلبة هذه الصناعة، والمشهود له بالسبق الكريم في البلاغة والبراعة، ومالك أزمّة الكلام في النظم والنثر، والغائص في بحر فكره على نفائس الدّر. فأمّا نظمه فرضي الطباع، وأما نثره فيصدع بسحر البيان، ويعطل المثل بقسّ وسحبان... وشاهدنا بعد ذلك مجالس لسواه، وكنا قد شاهدنا بمكة والمدينة، شرّفها اللّه، مجالس من قد ذكرناه في هذا التقييد، فصغرت»[(١)].

وفي مدينة الموصل أشار ابن جُبير إلى وجود «مدارس للعلم نحو الست[(٢)] أو أزيدَ على دجلة، فتلوح كأنها القصور المشرفة»[(٣)]. وفي مدينة نصيبين بالعراق أشار ابن جُبير إلى وجود مدرستين، وصاحبها أي مُبتنيها وواقفها هو «معين الدين أخو عز الدين صاحب الموصل، ابنا أتابك»[(٤)]. وكذلك أشار إلى وجود مدرسة في مدينة حران بالعراق[(٥)].

وحين الحديث عن مدارس دمشق ذكرها إجمالًا، وقال: إنّ بها نحو من عشرين مدرسة، ولكنه عاد وذكر بعضها، ومن ذلك مدرسة نور الدين، فقال عنها: «من أحسن مدارس الدنيا منظرًا مدرسة نور الدين رَحِمَهُ اللَّهُ، وبها قبره، نوره اللّه، وهي قصر من القصور الأنيقة، ينصبُّ فيها الماء في شاذروان وسط نهر عظيم، ثم يمتدّ الماء في ساقية مستطيلة إلى أن يقع في صهريج كبير وسط الدار. فَتَحارُ الأبصار في حسن ذلك

(١) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص١٧٥.

(٢) حصرها أحد الباحثين بأنها المدرسة: النظامية، والأتابكية، والعتيقة، والزينية، الكمالية القضوية، والعزية، والمجاهدية.

انظر البحث المعنون: (معلومات ابن جُبير عن الموصل: دراسة تحليلية) طه خضر عبيد، مجلة دراسات موصلية، جامعة الموصل، العراق، العدد ٤٥، محرم ١٤٣٩هـ/ أيلول ٢٠١٧م، ص٢٥.

(٣) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص١٨٤.

(٤) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص١٨٨.

(٥) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص١٩٣.

المنظر، فكل من يبصره يجدد الدعاء لنور الدين رَحِمَهُ اللَّهُ»[١]. وهذه المدرسة التي يصفها ابن جُبير هي (المدرسة النورية الكبرى)، وقد ذكرها النعيمي في كتابه (الدارس في تاريخ المدارس)، وقال عنها: «أنشأها الملك العادل نور الدين محمود ابن زنكي بن آقسنقر رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى في سنة (٥٦٣هـ) ثلاث وستين وخمسمئة، وهي بعض دار هشام بن عبدالملك الأموي، وكانت قديمًا دار معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ»[٢].

كما ذكر مدرسة بالقرب من المسجد للشافعية، واصفًا إياها أنها «عن يمين الخارج من باب البريد، في وسطها صهريج يجري الماء فيه، ولها مطاهر»[٣].

كما أشار تفصيلًا إلى بعض الأوقاف التي أوقفها الملك العادل نور الدين محمود ابن زنكي بن آقسنقر للطلبة القادمين إلى دمشق من بلاد المغرب تحديدًا، فيقول: «عين للمغاربة الغرباء والملتزمين زاوية المالكية بالمسجد الجامع المبارك، أوقافًا كثيرة، منها طاحونتان وسبعة بساتين وأرض بيضاء وحمام ودكانان بالعطارين. وأخبرني أحد المغاربة الذين كانوا ينظرون فيه أن هذا الوقف المغربي يغلّ إذا كان النظر فيه جيدًا خمسمئة دينار في العام.. وهيأ ديارًا موقوفة لقراء كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ يسكنونها»[٤].

أما المدارس فقد أشار ابن جُبير إلى واحدة منها بالقرب من المسجد الأموي، فحين وصفه لخطط المسجد ذكر «دهليز الباب الشمالي فيه زوايا على مصاطب محدقة بالأعواد المشرجبة[٥]، وهي محاضر لمعلمي الصبيان»[٦].

---

(١) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٢٢٢.

(٢) الدارس في تاريخ المدارس، مرجع سابق، ص١٢٩. وقال محقق الكتاب: هي أشهر مدارس دمشق، وما تزال قائمة، ولكنها عرضة للتشويه بعد أن أُقتطع جزء من صحنها الشمالي لتوسعة الطريق، ثمّ جُعل حديقة، ثمّ أُعيد هذا الجزء إلى المسجد.

(٣) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٢١٢.

(٤) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٢٢٣.

(٥) شَرَجَ: (فعل)، وشَرَجَ شَرْجًا، وشَرَجَ الشيءَ: ضَمَّ أَجزاءه بعضها إِلى بعض، وشَرِيج: (اسم)، والجمع: شرائجُ، والشَّرِيجةُ: جَدِيلَةٌ من قَصَبَ، والشَّريجان: لونان مختلفان من كلّ شيءٍ. وهما مختلطان غير السواد والبياض ويُقال لخطي نيري البُرد شريجان، أحدهما أخضر، والآخر أبض أو أحمر، والذي يظهر أنها أعواد من قصب ملون مثل الفواصل بين محاضر معلمي الصبيان، لسان العرب، ج/ ٢، مادة شرج، ص٣٠٥.

(٦) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٢١٢.

وفي مدينة حلب ذكر ابن جُبير بعد أن أبدع في وصف جامعها أن فيها من «الجانب الغربي مدرسة للحنفية تناسب الجامع حسنًا وإتقان صنعة، فهما في الحسن روضة تجاور أخرى. وهذه المدرسة من أحفل ما شاهدناه من المدارس بناءً وغرابة صنعة، ومن أظرف ما يلحظ فيها أن جدارها القبلي مفتح كله بيوتًا وغرفًا، ولها طيقان يتصل بعضها ببعض، وقد امتدّ بطول الجدار عريش كرم مثمر عنبًا، فحصل لكل طاق من تلك الطيقان قسطها من ذلك العنب متدليًا أمامها، فيمدّ الساكن فيها يده ويجتنيه متكئًا دون كلفة ولا مشقة. وللبلدة سوى هذه المدرسة نحو أربع مدارس أو خمس»[(١)]. وكأن ابن جُبير يصف مدرسة فيها سكن داخلي لطلبة العلم، وفيها من الترف المتوافر لهم حتّى أن عناقيد العنب تصل إلى شبابيك غرفهم، ويقطفونها وهو متكئون في غرفهم.

وفي مدينة حماة ذكر أن بها ثلاث مدارس[(٢)] وهذه المدارس الثلاث وغيرها من المدارس التي وردت في الرحلة إنما هي مدارس وقفيّة أو لها أوقاف تُدرّ عليها، فهذا هو السائد في تلك العصور، فلا يعرف في المجال التعليمي إلا المدارس الوقفيّة، فلقد كان للوقف إسهام أساسي في تمويل القطاعات التعليميّة والقطاعات الصحيّة، وكذا تمويل المشروعات الدينية والدعوية، وأسهم في دعم المشروعات الاقتصادية والزراعية والخدمات، ولقد تميّز هذا الإسهام عندما لم يكن للدولة الإسلامية مخصصات مالية محددة توزعّ على تلك القطاعات، وكان عمل الدولة منصبًا على الدفاع والحراسة والأمن[(٣)].

ويؤكد ذلك ما ذكر ابن جُبير نفسه حيث قال في معرض احتفائه بما يبذله السلطان والأمراء ونساؤهم أن «كل مسجد يستحدث بناؤه أو مدرسة أو خانقة يعيّن لها السلطان أوقافًا تقوم بها وبساكنيها والملتزمين لها، ومن النساء الخواتين ذوات الأقدار

(١) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص١٩٩.

(٢) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٢٠١.

(٣) الوقف كمصدر اقتصادي لتنمية المجتمعات الإسلامية، سليمان بن صالح الطفيل، ندوة (مكانة الوقف وأثره في الدعوة والتنمية)، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، مكة المكرمة، ١٤٢٠هـ، الجزء الثاني، ص١٢٣٨.

من تأمر ببناء مسجد أو رباط أو مدرسة، وتنفق فيها الأموال الواسعة، وتعيّن لها من مالها الأوقاف، ومن الأمراء من يفعل مثل ذلك»[١].

كما وصف ابن جُبير أن من يرد من بلاد المغرب من الغرباء المنقطعين يجدون وجوه المعايش من «إمامة في مسجد، أو سكنى بمدرسة تجرى عليه فيها النفقة، أو التزام زاوية من زوايا المسجد الجامع يجبى إليه فيها رزقه، أو حضور في قراءة سبع، أو سدانة مشهد، ويجري عليه ما يقوم به من أوقافه»[٢].

ومن الأوقاف الغريبة في مصرفه وطريقة تنفيذه، ما أورده ابن جُبير وهو وقفٌ يُسمى (الكوثرية) شاهده في المسجد الاموي واصفًا إياه بوجود عدد كبير من الناس يقومون «إثر صلاة الصبح لقراءة سبع من القرآن دائمًا، ومثله إثر صلاة العصر، لقراءة تسمى الكوثرية، يقرأون فيها من سورة الكوثر إلى الخاتمة، ويحضر في هذا المجتمع الكوثري كل من لا يجيد حفظ القرآن، وللمجتمعين على ذلك إجراء كل يوم يعيش منه أزيد من خمسمئة إنسان... وأصلها أن أحد ذوي اليسار توفي وأوصى بأن يدس قبره في الجامع المكرم، وأوقف وقفًا يغل مئة وخمسين دينارًا في السنة برسم من لا يحفظ القرآن، ويقرأ من سورة الكوثر إلى الخاتمة، فينقسم له أربعون دينارًا، في كل ثلاثة أشهر من السنة»[٣].

والأمر يتكرر، وهو وجود أوقاف تُخصص لمن يقرأ القرآن الكريم برجاء أن يعود ثوابه للواقف، فيذكر ابن جُبير «أن أحد الملوك السالفين توفي وأوصى كذلك على غرار وقف الكوثرية بأن يجعل قبره في الجامع المكرم بحيث لا يظهر، وعيّن أوقافًا عظيمة تغلّ نحو الألف دينار وأربعمئة دينار في السنة وزائد لقراء سبع القرآن كل يوم»[٤].

ومن أغرب الأوقاف التي شاهدها ابن جُبير في الجامع الأمويّ بدمشق هو «أن سارية من سواريه، هي بين المقصورتين القديمة والحديثة، لها وقف معلوم يأخذه المستند

(١) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٢١٥.
(٢) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٢١٧.
(٣) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٢٢٨.
(٤) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٢٢٨.

إليها للمذاكرة والتدريس، وأبصرنا بها فقيهًا يجلس أمامه صبي يلقنه القرآن، وللصبيان أيضًا على قراءتهم جراية معلومة، فأهل الجـدة - الأغنياء - من آبائهم ينزهون أبناءهم عن أخذها، وسائرهم يأخذها، وهذا من المفاخر الإسلامية»[١].

أما الكتب والمكتبات فلم يكن ثمة ذكر كثير لها، فمما شاهده ابن جُبير في مكة المكرمة مخزنان للأوقاف على الحرم الشريف داخل المسجد، وفيها «مصاحف وكتب وأتوار[٢] شمع وغير ذلك»[٣] وكلها برسم المسـجد الحرام، كما أشار إلى وجود كتب مُحبسة على العلماء وطلبة العلم المالكية في غرفة بجوار باب إبراهيم عليه السلام في الحرم المكي الشريف[٤].

وفي المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام أشار إلى وجود «خزانتان كبيرتان محتويتان على كتب ومصاحف موقوفة على المسجد المبارك»[٥].

٣. الأوقاف الصحيّة:

لا يخفى أن الشكل الأظهر في الأوقاف الصحيّة هي المارستان أو البيمارستانات، وكلمة «الْمَارَسْـتَانُ، بفتح الـراء، دار المَرضَى»[٦]، ثمّ أصبح هـذا المصلح تُعرف به المستشفيات في العصور الإسلامية.

ولقد ذكر ابن جُبير شيئًا من ذلك، وعدّه من مآثر صلاح الدين الأيّوبيّ، فيصف وضع المتعلمين في الإسكندرية، وكيف أُنشئَ مارستان لهم، وليس هذا فحسب، بل وكّل بهم من يقوم بتطبيب من يعجز عن الوصول إلى المارستان من هؤلاء الطلاب، وكأنه بدايات للزيارات الطبية المنزلية، فيصف طلبة العلم بأنهم «يفدون من الأقطار النائية،

(١) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٢١٣.
(٢) التَّوْرُ: قال الأزهري: إناء معـروف تذكره العرب والجمع «أَتْوَارٌ»، المصباح المنير في غريب الشـرح الكبير، أحمد بن مُحَمَّد الفيومي، الجزء الأول، دار المعارف، القاهرة، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، ص٧٨.
(٣) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٦٦.
(٤) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٨٠.
(٥) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص١٥٢.
(٦) لسان العرب، مرجع سابق، مادة مرس، المجلد ٦، ص٢١٧.

فيلقى كل واحد منهم مسكنًا يأوي إليه ومدرّسًا يعلمه الفن الذي يريد تعلمه وإجراء يقوم به في جميع أحواله... ونصب لهم مارستانًا لعلاج من مرض منهم، ووكّل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم، وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر في مصالحهم التي يشيرون بها من علاج وغذاء. وقد رتّب أيضًا فيه أقوام برسم الزيارة للمرضى الذين يتنزهون[1] عن الوصول للمارستان المذكور من الغرباء خاصة، وينهون إلى الأطباء أحوالهم ليتكفلوا بمعالجتهم... ولهذا كله أوقاف من قبله»[2].

وأغرب من ذلك ما شاهده ابن جُبير في مارستان القاهرة ورعايته للمرضى من الرجال والنساء في أماكن خاصة بهن، وقسم آخر لفاقدي العقل أو المجانين كما يسميهم ابن جُبير، وكلها قد تكفل بها السلطان من أوقاف مُدرة عليها، وعدّ ذلك المارستان من مفاخر هذه المدينة، فيصف ذلك المارستان بأنه «قصر من القصور الرائقة حسنًا واتساعًا، وفيه خزائن العقاقير، ووضعت في مقاصير ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسى، وبين يدي ذلك القيّم خدمة يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشية، فيقابلون من الأغذية والأشربة بما يليق بهم. وبإزاء هذا الموضع موضع مقتطع للنساء المرضى. ولهن أيضًا من يكفلهن. ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء، فيه مقاصير عليها شبابيك الحديد، اتخذت محابس للمجانين، ولهم أيضًا من يتفقد في كل يوم أحوالهم ويقابلها بما يصلح لها، وبمصر مارستان آخر على مثل ذلك الرسم بعينه»[3].

وفي بغداد يصف المارستان الشهير بها وهو البيمارستان العضدي[4] بقوله: «وهو على دجلة، وتتفقده الأطباء كل يوم اثنين وخميس، ويطالعون أحوال المرضى به،

(١) التَّنَزُّهُ رَفْعُ نفْسَه عن الشيء تكَرُّمًا ورغبة عنه. انظر: لسان العرب، مرجع سابق، مادة نزه، المجلد ١٣، ص٥٤٩.

(٢) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٢٦.

(٣) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٣٥.

(٤) يُعدُّ البيمارستان العضدي من أشهر المؤسَّسات العلاجيَّة؛ ويتميَّز بنظامٍ دقيقٍ، ويُنسب هذا البيمارستان إلى عضد الدولة أبي شجاع فناخُسرو، واجتمع فيه أربعة وعشرون طبيبًا، وفيه مكتبة كبيرة، وظلّ باقيًا حتى الغزو المغولي لبغداد سنة ٦٥٦هـ وكان له أوقاف كثيرة، منها ضياعٌ ريعها خمسة آلاف دينار، وأرحاء - جمع رحى - بالزبيدية من نهر عيسى، موقوفة عليه. انظر: الأوقاف وشمولها للخدمات الصحيّة في الحضارة الإسلامية، إبراهيم بن مُحَمَّد المزيني، مؤسسة ساعي لتطوير الأوقاف، الرياض، ١٤٤٤هـ/٢٠٢م، ص١٢١.

ويرتبون لهم أخذ ما يحتاجون إليه، وبين أيديهم قومة يتناولون طبخ الأدوية والأغذية، وهو قصر كبير فيه المقاصر والبيوت وجميع مرافق المساكن الملوكية، والماء يدخل إليه من دجلة»[١].

وفي الموصل أشار ابن جُبير إلى بيمارستان حفيل[٢] في وسط البلدة ضمن مجمع كبير فيه جامع وحمامات وخانات وقيسارية ودكاكين وأسواق[٣]، بناه الأمير مجاهد الدين قايماز والبيمارستان يُعرف بالبيمارستان المُجاهدي[٤].

وفي مدينة نصيبين بالعراق أشار ابن جُبير إلى وجود مارستان وصاحبه أي مُبتنيها وواقفها هو «معين الدين أخو عز الدين صاحب الموصل، أبنا أتابك»[٥].

أما في دمشق فالأمر أكبر من ذلك لتعدد تلك البيمارستانات وكثرتها، فيتحدث ابن جُبير عن البيمارستان النوري بدمشق[٦] ويقول: بها «مارستانان قديم وحديث، والحديث أحفلهما وأكبرهما، وجرايته في اليوم نحو خمسة عشر دينارًا، وله قومة بأيديهم الأزمة المحتوية[٧] على أسماء المرضى وعلى النفقات التي يحتاجون إليها في

(١) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص١٧٦.

(٢) حفيل بمعنى: كثير. انظر لسان العرب، مرجع سابق، مادة حفل، المجلد الحادي عشر، ص١٥٦.

(٣) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص ١٨٤.

(٤) هذا البيمارستان يُنسب للأمير مجاهد الدين قايماز، أنشأه سنة ٥٧٢هـ (١١٧٦م) على نهر دجلة، وأوقف عليه الأوقاف اللازمة للصرف عليه، وظل هذا البيمارستان قائمًا بأعماله حتى سنة ٧٢٨هـ(١٣٢٨م). انظر: الأوقاف وشمولها للخدمات الصحيّة في الحضارة الإسلامية، مرجع سابق، ص١٦٥. وكذلك: حلب والموصل في العهد الأيّوبيّ من خلال رحلة ابن جبير (دراسة مقارنة في الجانب العمراني)، خالد يوسف صالح، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، جامعة الموصل، العراق، ٢٠٠٩م، العدد ١، ص٢٠٤ - ٢١٩.

(٥) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص١٨٨.

(٦) المقصود البيمارستان النوري بدمشق، وينسب إلى الملك نور الدين محمود بن زنكي، فقام ببناء البيمارستانات، وأكثر منها ومن الأوقاف عليها، وأعظمها البيمارستان في دمشق. ولم يجعله وقفًا على الفقراء فحسب، بل على كل المسلمين من غني وفقير. وقد سُجِّل وقف هذا البيمارستان سنة ٥٦٥هـ (١١٧٠م). ثمّ توالت عليه الأوقاف فوق ماله من أوقاف، وظل البيمارستان عامرًا إلى سنة ١٣١٧هـ (١٨٩٩م).
انظر: الأوقاف وشمولها للخدمات الصحيّة في الحضارة الإسلامية، مرجع سابق، ص١٢٥.

(٧) كأن المقصود بها السجلات الطبية أو الملف الطبي لكل مريض.

الأدويــة والأغذية وغير ذلك. والأطباء يبكرون إليه فــي كل يوم، ويتفقدون المرضى، ويأمرون بإعــداد ما يصلحهم من الأدوية والأغذية، حســبما يليق بكل إنســان منهم، والمارســتان الآخر على هذا الرســم، لكن الاحتفال في الجديد أكثــر... وللمجانين المعتقلين أيضًا ضرب من العلاج، وهم في سلاسل موثقون، نعوذ باللّٰه من المحنة وسوء القدر... وهذه المارستانات مفخر عظيم من مفاخر الإسلام»[١]. وهو من الشهرة بمكان في الأوقاف الصحيّة في الحضارة الإسلامية.

وأشار ابن جُبير أن في مدينة حماة «مارستان على شطّ نهر العاصي بإزاء الجامع الصغير»[٢]، وهو المعروف بالبيمارســتان النوري[٣]، وإن كان لم يسمه ابن جُبير. وفي مدينة حلب ذكر ابن جُبير أن فيها مارستانًا واحدًا[٤].

أما في مدينة حمص فالأمر يظهر أنه أكبر من ذلك، فقد أورد ابن جُبير محاورة مع أحد أهل حمص حول وجود مارســتان من عدمه فيقول: «وسألنا أحد الأشياخ بهذه البلدة: هل فيها مارستان على رســم مدن هذه الجهات؟ فقال، وقد أنكر ذلك: حمص كلها مارستان، وكفاك تبيينًا شهادة أهلها فيها»[٥].

٤. الأوقاف الاجتماعية:

على الرغم من وجود صورة متعددة وأشــكال مبتكرة من الأوقاف الاجتماعية التي يقصد بها خدمات اجتماعية تُعنى بالجانب الاجتماعي بشكل مباشر مثل رعاية الأيتام، أو المنقطعين والعجزة، أو الزمنى، أو كبار السن إلا أن ظهورها لم يكن بارزًا في رحلة ابن جُبير، فلم نجد إلا إشــارة يســيرة عن رعايــة الأيتام في مدينة دمشــق، فيقول:

(١) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٢٢٢.

(٢) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٢٠١.

(٣) البيمارِســتان النوري بحماة، يُنســب إلى الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي. انظر: الأوقاف وشــمولها للخدمات الصحيّة في الحضارة الإسلامية، مرجع سابق، ص١٩٩.

(٤) البيمارِستان النوري بحماة، يُنسب إلى الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي. انظر: الأوقاف وشمولها للخدمات الصحيّة في الحضارة الإسلامية، مرجع سابق، ص١٦٣.

(٥) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٢٠٣.

«وللأيتام من الصبيان محضـــرة كبيرة بالبلد لها وقف كبيـــر، يأخذ منه المعلم لهم ما يقوم به، وينفـــق منه على الصبيان ما يقوم بهم وبكســـوتهم؛ وهذا أيضًا من أغرب ما يحدث به من مفاخر هذه البلاد»[(١)]. وذكر ابن جُبير أن لهذه المحضرة أو المدرسة المخصصة للأيتام وقفًا كبيرًا دون حديث عن ماهيته أو طبيعته، ولكن الشاهد أن هنا مكان مخصص للأيتام من خلال الأوقاف، ويصرف على الأيتام الدارســين وكسوتهم، وكذلك للمعلم من هذا الوقف الكبير نصيب.

ومن أغرب الأوقاف ما ذكره حين الحديث عن الربوة القريبة من دمشق المجاورة لجبل قاسيون، وهي كما يحددها بأنها «الربوة المباركة المذكورة في كتاب الله تعالى: مأوى المسيح وأمه، صلوات الله عليهما»[(٢)]. ويصف بعد ذلك مصارف أوقافها، فيقول: «وللربوة المباركة أوقاف كثيرة من بســاتين وأرض بيضاء ورباع، وهي معينة التقسيم لوظائفها. فمنها ما هو معيّن باســم النفقة في الأدم للبائتين فيها من الزوار، ومنها ما هو معين للأكسية برســم التغطية بالليل، ومنها ما هو معيّن للطعام، إلى تقاسيم تســتوفي جميع مؤنها، ومــؤن الأمين الراتب فيها برســم الإمامة، والمــؤذن الملتزم خدمتهــا، ولهم علــى ذلك كلــه مرتب معلــوم في كل شــهر. وهي خطــة من أعظم الخطط»[(٣)]. إذن فمصارف أوقافها على الفئات التالية:

- النفقة في الأدم للبائتين فيها من الزوار للمشاهد، والأدم كما ذكر ابن منظور: هو ما يؤكل بالخبز أَيَّ شيء كان. فهذا مصرف للإطعام لمن يبيت في الربوة.
- ومن المصارف ما هو معيّن للأكســية برســم التغطية بالليل، وهي كســوة أو ملابس أو غطاء لمن يبيت في الربوة ممن يحضر لتلك المشاهد بها، ولا شك في أن ذلك عائد إلى برودة المكان في بلاد الشام عمومًا.
- ومن المصارف ما هو معيّن للطعام، بشكل عام لمن يحضر في الربوة ويحضر مشاهدها.

(١) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٢١٣.
(٢) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٢١٥.
(٣) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٢١٧.

- ومن مصارف تلك الأوقاف مؤن الأمين الراتب فيها برسم الإمامة، والمؤذن الملتزم خدمتها، ولهم على ذلك كله مرتب معلوم في كل شهر، وقد حدّده ابن جُبير بأن له في «الشهر خمسة دنانير حاشا فائدة الربوة»[١].

ومن الأوقاف الاجتماعية أورد ابن جُبير وقفًا مخصصًا لمن لا يجد مأوى من الفقراء ممن يأوون إلى الجامع الأموي فهو خاص «للفقراء الملتزمين الجلوس في الجانب الشرقي من الجامع المكرم، الذين ليس لهم مأوى يأوون اليه، وقف وضعه بعض المتأجرين الموفقين برسمهم»[٢].

ومن مآثر صلاح الدين التي أشار لها ابن جُبير في مسار الأوقاف الاجتماعية في مصر أنه «ما من جامع من الجوامع، ولا مسجد من المساجد، ولا روضة من الروضات المبنية على القبور، ولا محرس من المحارس، ولا مدرسة من المدارس، إلا وفضل السلطان يعم جميع من يأوي إليها، ويلزم السكنى فيها، تهوّن عليه في ذلك نفقات بيوت الأموال»[٣]. فهي نفقات وقفيّة للإيواء لكل من يسكن في تلك الأماكن التي ذكرها ابن جُبير.

٥. الأوقاف الخدمية:

من هذه الأوقاف: الخانات، والحمامات، والأسبلة، والسقايات، وصهاريج المياه في طرق المسافرين، وهذه الأنواع من الأوقاف الخدمية مما تكثر في المدن الإسلامية بشكل ملحوظ.

لقد اشتهرت المدن الإسلامية بما يعرف بالسبيل أو الأسبلة وهي «نوع خاص من المنشآت المائية، وهو المعروف والشائع باسم السبيل أو السقاية، وهذه التسمية الأخيرة شائعة في الغرب الإسلامي»[٤]. وهذا الاسم «السقايات» هو الذي استخدمه ابن جُبير في

(١) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٢١٧.
(٢) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٢٢٨.
(٣) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٣٦.
(٤) الأسبلة في العمارة الإسلامية، محمد حمزة إسماعيل الحداد، مكتبة زهرة الشرق، القاهرة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م، ص٧.

وصف الأسبلة التي شاهدها في المدن الإسلامية التي زارها، وكان من الدارج أن يُخصص بناء بباطن الأرض لتخزين المياه، ويعلوه مباشرة بناء آخر لتسبيل هذا الماء.

وهذه السقايات من الكثرة في مدينة دمشق حتى أن ابن جُبير يقول عنها: «والبلد كله سقايات قلّما تخلو سكة من سككه أو سوق من أسواقه من سقاية، والمرافق به أكثر من أن توصف»[١].

وتحدث عن وصف عجيب للسقايات المجاورة للجامع الأموي بدمشق، فيقول: «ويستدير بهذا الجامع المكرم أربع سقايات، في كل جانب سقاية، كل واحدة منها كالدار الكبيرة محدقة بالبيوت الخلائية، والماء يجري في كل بيت منها، وبطول صحنها حوض من الحجر مستطيل تصب فيه عدة أنابيب منتظمة بطوله، وإحدى هذه السقايات في دهليز باب جيرون، وهي أكبرها، وفيها زائدًا على السقاية المستطيلة مع جدارها حوضان كبيران مستديران، والواحد بعيد من الآخر، ودور كل واحد منهما نحو الأربعين شبرًا، والماء نابع فيهما. والثانية في دهليز باب الناطفيين، والثالثة عن يسار الخارج من باب البريد، والرابعة عن يمين الخارج من باب الزيادة. وهذه أيضًا من المرافق العظيمة للغرباء وسواهم»[٢].

أما في الربوة المباركة كما يسميها ابن جُبير، وهي ربوة دمشق، فيذكر أن «المسجد يطيف بها، ولها شوارع دائرة، وفيها سقاية لم ير أحسن منها، قد سيق إليها الماء من علو، وماؤها ينصب على شاذروان في الجدار متصلًا بحوض من رخام، يقع الماء فيه، لم ير أحسن من منظره، وخلف ذلك مطاهر يجري الماء في كل بيت منها»[٣]

وفي بلدة (النيرب) و(المزة) القريبة من دمشق ذكر: بها «جامع لم ير أحسن منه، مفروش سطحه كله بفصوص الرخام الملون، وفيه سقاية ماء رائقة الحسن، ومطهرة لها عشرة أبواب، يجري الماء فيها، ويطيف بها. وفوقها لجهة القبلة قرية كبيرة، هي من أحسن القرى، تعرف بالمزة، وبها جامع كبير وسقاية معينة»[٤].

(١) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٢١٣.
(٢) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٢١٣.
(٣) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٢١٦.
(٤) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٢١٦.

وفي بغداد ذكر بعضًا من ذلك حول الجوامع تحديدًا في الجزء الشرقي منها وهي دار الخلافة، فيقول: «وأما الشرقية فهي اليوم دار الخلافة، وهي حفيلة الأسواق عظيمة الترتيب، تشتمل من الخلق على بشر لا يحصيهم إلا الله تعالى الذي أحصى كلَّ شيء عددًا، وبها من الجوامع ثلاثة، كل يُجمَّعُ فيها: جامع الخليفة متصل بداره، وهو جامع كبير، وفيه سقايات عظيمة ومرافق كثيرة كاملة، مرافق الوضوء والطهور»[١].

وفي مدينة نصيبين بالعراق ذكر أنه «ينساب بين يديها نهر قد انعطف عليها انعطاف السوار، والحدائق تنتظم بحافتيه، وهذا النهر ينسرب إليها من عين معينة منبعها بجبل قريب منها، تنقسم منها مذانب[٢] تخترق بسائطها وعمائرها، ويتخلل البلد منها جزء، فيتفرق على شوارعها، ويلج في بعض ديارها، ويصل إلى جامعها المكرم منه سرب يخترق صحنه، وينصب في صهريجين: أحدهما وسط الصحن، والآخر عند الباب الشرقي منه، ويفضي إلى سقايتين حول الجامع»[٣].

كما ذكر ابن جُبير صهاريج الماء التي شاهدها في مكة المكرمة في أثناء تأدية مناسك الحج وتنقله بين المشاعر، فهو يُثني على أحد الوزراء اسمه جمال الدين؛ فيقول عنه: «وكان هذا الرجل كصفته جمال الدين له رَحِمَهُ اللَّهُ بمكة والمدينة شرفهما الله من الآثار الكريمة والصنائع الحميدة والمصانع المبنية في ذات الله المشيدة ما لم يسبقه أحد إليه فيما سلف من الزمان، ولم يزل فيها باذلًا أموالًا لا تحصى في بناء رباع بمكة، مسبلة في طرق الخير والبرّ، مؤيدة، محبسة، واختطاط صهاريج للماء، ووضع جباب في الطرق يستقر فيها ماء المطر، وكان من أشرف أفعاله أن جلب الماء إلى عرفات»[٤]. وما ذكرها ابن جُبير كلها أوقاف مسبلة من قبل ذلك الوزير.

(١) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص١٧٩.

(٢) المِذْنَبُ: مَسِيلُ ما بين تَلْعَتَين، كهيئةِ الجَدْوَل، وتجمع على مَذانِبُ. انظر: لسان العرب، مرجع سابق، مادة ذنب، المجلد ١، ص٣٩١.

(٣) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص١٨٧.

(٤) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٩٦.

وقبل دخول ابن جُبير إلى مكة المكرمة يذكر بعضًا من أوقاف المياه في طريق الحاج والمعتمر، فيقول: » ثم تسير منها بمقدار ميل وتلقى الزاهر، وهو مبتنى على جانبي الطريق، يحتوي على دار وبساتين، والجميع ملك أحد المكيين، وقد أحدث في المكان مطاهر وسقاية للمعتمرين، وعلى جانب الطريق دكان مستطيل تصف عليه كيزان الماء ومراكن مملوءة للوضوء، وهي القصاري[1] الصغار. وفي الموضع بئر عذبة يملأ منها المطاهر المذكورة، فيجد المعتمرون فيها مرفقًا كبيرًا للطهور والوضوء والشرب»[2].

ولزوجات الملوك نصيب من ذلك، فيذكر عن «الملكة خاتون بنت الأمير مسعود، ملك الدروب والأرمن وما يلي بلاد الروم، أفعالًا من البر كثيرة في طريق الحاج: منها سقي الماء للسبيل، عينت لذلك نحو ثلاثين ناضحة، ومثلها للزاد، واستجلبت لما تختص به من الكسوة والأزودة وغير ذلك نحو المئة بعير، وأمورها يطول وصفها»[3].

أما الحمامات فقد أُعجب ابن جُبير بحمامات بغداد، فوصفها وصفًا تفصيليًا، وأشار إلى عددها بصيغة التشكيك؛ فقال: «أما حماماتها فلا تحصى عدة، ذكر لنا أحد أشياخ البلد أنها بين الشرقية والغربية نحو الألفي حمام، وأكثرها مطلية بالقار[4] مسطحة به، فيخيل للناظر أنه رخام أسود صقيل، وحمامات هذه الجهات أكثرها على هذه الصفة لكثرة القار عندهم، لأن شأنه عجيب، يجلب من عين بين البصرة والكوفة، وقد أنبط الله ماء هذه العين ليتولد منه القار، فهو يصير في جوانبها كالصلصال، فيجرف ويجلب وقد انعقد، فسبحان خالق ما يشاء لا إله سواه»[5].

وفي مكة المكرمة ذكر أن «لهذه البلدة المباركة حمامان: أحدهما ينسب للفقيه الميانشي، أحد الأشياخ المحلقين بالحرم المكرم؛ والثاني، وهو الأكبر، ينسب لجمال

(١) القصاري (جمع قصرية)، وهي وعاء صغير لفضلات الجسم، وهي من العامية.
انظر: تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٨٥.
(٢) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٨٥.
(٣) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص١٤٤.
(٤) ما يشير له ابن جُبير هو البترول، وكان يتدفق بشكل طبيعي من الأرض وفق وصف ابن جُبير لما شاهده بين البصرة والكوفة، فتلك مواطنه في زمن ابن جُبير وإلى الآن.
(٥) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص١٧٩.

الدين، وهو الذي سبق ذكره، وأنه بنى صهاريج للماء في مكة المكرمة، ووضع جباب في الطرق يستقر فيها ماء المطر وجلب الماء إلى عرفات»[١].

وغالبًا ما تؤمَّنُ تلك الحمامات للمدارس الوقفيّة، وقد وصف ابن جُبير ما شاهده من خدمات لطلبة العلم في الإسكندرية القائمة على الأوقاف السلطانية بأن: «كل واحد منهم يلقى مسكنًا يأوي إليه، ومدرّسًا يعلمه الفن الذي يريد تعلمه، وإجراء يقوم به في جميع أحواله، واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين، حتى أمر بتعيين حمّامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك»[٢]. ولهذه الخدمات كلها أوقاف من قبل السلطان صلاح الدين الأيّوبيّ.

أما الخانات فهناك العشرات منها التي مرّ بها ابن جُبير وسكنها، والغالب على وصفه لها وقوام ديمومتها أنها موقوفة، بل صرح بذلك في بعض المواضع، ومما يلاحظ أن ابن جُبير لم يستفد من الأربطة التي كانت موجودة للسكن فيها كما أكثَرَ من ذلك الرحالة ابن بطوطة، فغالب مأوى ابن جُبير كانت الخانات، بخلاف ابن بطوطة الذي كان غالب مأواه الأربطة، وقد يكون للنزعة الصوفية الشديدة لدى ابن بطوطة أثر في ذلك[٣].

ولهذا الرجل جمال الدين الذي سبق ذكره بأنه بنى صهاريج للماء في مكة المكرمة من الآثار السنية والمفاخر العلية التي لم يسبقه إليها الأكابر الأجواد وسراة الأمجاد فيما سلف من الزمان، «واعتناؤه بإصلاح عامة طرق المسلمين بجهة المشرق من العراق إلى الشام إلى الحجاز، واختط المنازل في المفازات، وأمر بعمارتها مأوى لأبناء السبيل وجميع المسافرين؛ وابتنى بالمدن المتصلة من العراق إلى الشام فنادق عيّنها لنزول الفقراء أبناء السبيل الذين يضعف أحدهم عن تأدية الأكرية؛ وأجرى على قومة تلك الفنادق والمنازل ما يقوم بمعيشتهم، وعيّن لهم ذلك في وجوه تأبدت لهم»[٤]، والمقصود بذلك بطبيعة الحال أوقاف تُدر عليها، وتضمن تأبيدها بعد وفاته، وهذه خصيصة للأوقاف كما لا يخفى.

(١) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٩٦.
(٢) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٢٦.
(٣) انظر في ذلك بحث: الأوقاف والمصارف الوقفية في رحلة ابن بطوطة: دراسة نقدية، مرجع سابق.
(٤) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٩٧.

ومن الخانات التي أورد ذكرها ابن جُبير (خان السلطان) نسبة إلى بانيه صلاح الدين الأيّوبيّ ضمن خانات عدة قام بإنشائها في الطرق بين المدن الإسلامية، وهذا الخان كما يصف ابن جُبير «في نهاية الوثاقة والحسن، بباب حديد على سبيلهم في بناء خانات هذه الطرق كلها واحتفالها في تشييدها، وفي هذا الخان ماء جار يتسرب إلى سقاية في وسط الخان كأنها صهريج»[(١)].

وهذا الخان واحد من عدد من الخانات التي بناها صلاح الدين الأيّوبيّ في الطريق من حمص إلى دمشق، وبخاصة أن ما بينهما كما يذكر ابن جُبير «قليل العمارة إلا في ثلاثة مواضع أو أربعة، منها هذه الخانات المذكور مريحين ومستدركين للنوم أول الظهر»[(٢)].

وذكر خان آخر كبير من تلك الخانات «بموضع يعرف بالقصير والنهر جار أمامه»[(٣)].

ثمّ أورد ابن جُبير سلسلة من الخانات الوقفيّة التي بناها صلاح الدين لعمارة طرق السفر وتأمينها، فيحكي عن نفسه أنه سكن في عدد منها في الطريق من حلب إلى حماة قائلًا: «فكان نزولنا في خان يعرف بخان أبي الشكر، فأقمنا به أربعة أيام، ورحلنا ضحوة يوم الخميس السابع عشر لربيع المذكور، ثم نزلنا مريحين بموضع يعرف بباقدين في خان كبير يعرف بخان التركمان، وثيق الحصانة، وخانات هذا الطريق كأنها القلاع امتناعًا وحصانة، وأبوابها حديد، وهي من الوثاقة في غاية. ثم رحلنا من هذا الموضع وبتنا بموضع يعرف بتمنى في خان وثيق على الصفة المذكورة»[(٤)].

وفي مدينة عكا ذكر ابن جُبير أنه أقام بها يومين، ثم توجّه إلى صور، واجتاز في طريقه على حصن كبير يعرف بالزاب، مطل على قرية مسورة تعرف بإسكندرونة، انتظارًا لمركب يتوجه إلى بجاية يركبونه، ويذكر تفصيل ذلك بقوله: «حللناها عشي يوم الخميس المذكور؛ لأن المسافة بين المدينتين نحو الثلاثين ميلًا، فنزلنا بها في

(١) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٢٠٣.
(٢) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٢١٣.
(٣) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٢٠٣.
(٤) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص١٩٩.

خان معد لنزول المسلمين»[١]. وهو خان وقف دون شك؛ بدليل أنه مُخصص للمسلمين؛ لأن المنطقة يسيطر عليها النصارى في تلك الحقبة.

ويذكر ابن جُبير في أثناء انتقاله من مدينة حماة إلى حمص أنه وصل «إلى مدينة حمص مع شروق الشمس من يوم الأحد الموفي عشرين لربيع الأول، وهو أول يوليه، فنزلنا بظاهرها بخان السبيل»[٢]. وكلمة السبيل توحي تمامًا أن هذا الخان وقف بلا شك، والغالب أنه من الخانات التي أمر صلاح الدين بإنشائها في طرق السفر؛ لأنه خارج المدينة أو بظاهرها كما ذكر ابن جُبير.

٦. الأوقاف البدعيّة:

يُقصد بها ما كان وقفًا على القبور والأضرحة وما يكون حولها أو لها من ممارسات بدعيّة أو شركيّة، وهي ما يذكرها ابن جُبير باسم (المشاهد)، وهي منتشرة في عدد من المناطق التي زارها، ولا تخلو من مظاهر لا يقرها الإسلام، مثل الطواف حول القبر والانكباب عليه والتمسح به، وهذا يخالف الزيارة الشرعية التي أمر بها الرسول ﷺ في الحديث الذي يرويه مسلم بقوله: «**كنتُ نهيتُكم عن زيارَةِ القبورِ، ألا فزورُوها؛ فإنَّها تُرِقُّ القلْبَ، وتُدْمِعُ العينَ، وتُذَكِّرُ الآخرةَ، ولا تقولوا هُجْرًا**[٣]»[٤] والزيارة الشرعية التي حثَّ عليها المصطفى ﷺ تتضمن عدة أمور: تَذَكُّرُ الآخرة، والدعاء للميت فحسب، ولكن ما يحدث عند بعضها من ذبح لغير الله أو طواف أو توسل غير مشروع بصاحب القبر كل ذلك من الأمور المنهي عنها.

إن ذكر هذا النوع من الأوقاف هو من باب الالتزام بخطة البحث في ذكر الأوقاف التي رصدها ابن جُبير في رحلته، وليس إقرارًا لتلك الممارسات التي تكون حول القبور أو المشاهد مما أوردها ابن جُبير في رحلته كما سنرى، ومما يُستغرب سكوت ابن جُبير عن هذه الممارسات وعدم انتقاده لها كما انتقد عددًا من المظاهر السياسية والإدارية

(١) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٢٣٩.

(٢) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٢٠٢.

(٣) ولا تقولوا هُجْرًا»، أي: كلامًا قَبيحًا فاحِشًا. انظر لسان العرب، مرجع سابق، مادة هجر، المجلد الخامس، ص٢٥٠.

(٤) صحيح الجامع الصغير وزياداته، مُحَمَّد ناصر الدين الالباني، المكتب الإسلامي، دمشق، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، الطبعة الثالثة، المجلد الثاني، حديث رقم ٤٥٨٤، ص٨٤١.

والعادات الاجتماعيــة، وتصرفات بعض الأئمة في الحرميّن الشــريفين، فقد رصد بعض الباحثين انتقادات ابن جُبير السياسية، والإدارية، والاجتماعية، في رحلته[١]، ولكن لم يكن لهذه المظاهر الشركية عند القبور أي انتقاد من ابن جُبير سواء أكان تصريحًا أم تلميحًا، بل ذكرهــا دون تعليق؛ فهل هذا إقرار منــه بما يحدث من أمور خارجة عن الممارســات الشرعية عند القبور والمشاهد التي وقف عليها ووصف بعضًا منها؟!.

سرد ابن جُبير عددًا من المشاهد (القبور) التي شاهدها خاصة في القاهرة، وذكر أنها لبعض الصحابة أو التابعين أو علماء المسلمين، فقال عن قبر الحسين رضي الله عنه: «من ذلك المشهد العظيم الشأن الذي بمدينة القاهرة حيث رأس الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وهو في تابوت فضة مدفون تحت الأرض، قد بني عليه بنيان حفيل[٢] يقصر الوصف عنه ولا يحيط الإدراك به، مجلل بأنواع الديباج... وشاهدنا من استلام الناس للقبر المبارك، وإحداقهم به، وانكبابهم عليه، وتمسحهم بالكسوة التي عليه، وطوافهم حوله مزدحمين باكين، متوســلين إلى الله سبحانه وتعالى ببركة التربة المقدسة، ومتضرّعين مما يذيب الأكباد ويصدع الجماد»[٣].

وسجّل باحتفاء عجيب ما شاهده في الجبانة المعروفة بالقرافة (المقبرة) بمدينة القاهرة حيث يقول: «وفي ليلة اليوم المذكور بتنــا بالجبانة المعروفة بالقرافة، وهي أيضًا إحدى عجائب الدنيا، لما تحتوي عليه من مشــاهد الأنبياء، صلوات الله عليهم، وأهل البيت رضي الله عنهم، والصحابــة والتابعين والعلمــاء والزهاد والأوليــاء ذوي الكرامات الشهيرة والأنباء الغريبة»[٤]، ثم شرع يعدّد هذه المشاهد، فعد أكثر من أربعين مشهدًا، ثمّ ختم الكلام بقوله: «والمشاهد الكريمة بها أكثر من أن تضبط بالتقييد، أو تتحصل بالإحصاء، وإنما ذكرنا منها ما أمكنتنا مشاهدته»[٥].

(١) الّنزعة الانتقاديّة في رحلة ابن جبير، مُحَمَّد نايف العمايرة وشفيق مُحَمَّد الرقب، مجلة دراسات (العلوم الإنسانية والاجتماعية) الجامعة الأردنية، عمان، المجلد ٣٧، العدد ٣، ٢٠١٠م، ص٦٢٣ - ٦٣٢.

(٢) حفيل بمعنى: كثير. انظر لسان العرب، مرجع سابق، مادة حفل، المجلد الحادي عشر، ص١٥٦.

(٣) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٢٩.

(٤) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٣٠.

(٥) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٣٣.

ويصف ابن جُبير تلك المشاهد (القبور البدعية) أن على كل واحد منها بناء حفيل. فهي بأسرها روضات بديعة الإتقان عجيبة البنيان، قد وكل بها قومة يسكنون فيها ويحفظونها. ومنظرها منظر عجيب، «ومن العجب أن القرافة المذكورة كلها مساجد مبنية ومشاهد معمورة يأوي إليها الغرباء والعلماء والصلحاء والفقراء، والجرايات متّصلة لقوامها في كل شهر»[(١)]، ومصارف ذلك غالبه من الأوقاف كما في إشارات أخرى ذكرها ابن جُبير خلال حديثه عن القاهرة دمشق كما سيأتي.

وعند زيارة ابن جُبير إلى دمشق أخذ في وصف مشاهدها والأوقاف الموقوفة عليها واصفًا تلك الأوقاف بالكثرة فيقول: «وخارج هذا البلد الجبانة العتيقة، وهي مدفن الأنبياء والصالحين، وبجبل قاسيون أيضًا لجهة الغرب، مغارة تعرف بمغارة الدم؛ لأن فوقها في الجبل دم هابيل قتيل أخيه قابيل ابني آدم... وعليها مسجد قد أتقن بناؤه، وفي أعلى الجبل كهف منسوب لآدم ﷺ، وعليه بناء، وتحته في حضيض الجبل مغارة تعرف بمغارة الجوع، وعلى هذه المغارة أيضًا مسجد مبني، ولكل مشهد من هذه المشاهد أوقاف معينة من بساتين وأرض بيضاء ورباع، حتى إن البلد تكاد الأوقاف تستغرق جميع ما فيه»[(٢)]

وفي موطن آخر يذكر أن غربي مدينة دمشق «جبانة كبيرة فيها قبور كثير من الصحابة والتابعين الأئمة الصالحين رضي الله عنهم، منهم أبو الدرداء وقبر زوجته أم الدرداء، وفضالة بن عبيد، وسهل بن الحنظلية، وواثلة بن الأسقع وأوس بن أوس الثقفي، وبلال بن حمامة مؤذن رسول الله ﷺ، ومشاهد كثيرة لأهل البيت رضي الله عنهم، رجالًا ونساءً، وقد احتفل الشيعة في البناء عليهم، ولها أوقاف واسعة»[(٣)].

كما ذكر أنه مرّ على قرية غرب دمشق تعرف براوية فيها «مشهد أم كلثوم ابنة علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وعليه مسجد كبير، وخارجه مساكن، وله أوقاف»[(٤)].

(١) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٣٣.
(٢) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص ٢١٤ - ٢١٥.
(٣) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٢١٨.
(٤) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص ٢٢٠.

وحرص ابن جُبير على توثيق المشـــاهد حتى التي لم يقف عليها، وإنما ذُكرت له بالوصف، فقد أورد أن «من المشاهد الكريمة التي لم نعاينها ووصفت لنا قبرًا شيث ونوح عليهما السلام، وهما بالبقـــاع، وهي على يومين من البلد، وعلى هـــذه القبور بناء، ولها أوقاف كثيرة، ولها قيّم يلتزمها»[(١)].

ومن العجب أن العامة من الناس يبحثون عن أي سبب لإيجاد مشهد من المشاهد؛ فيذكر ابن جُبير أن «من المشاهد الشهيرة أيضًا مسجد الأقدام، وهو على مقدار ميلين من البلد، وفي هذا المسجد بيت صغير فيه حجر مكتوب عليه: كان بعض الصالحين يرى النبي ﷺ في النوم، فيقول: ههنا قبر أخي موسى ﷺ، وله أوقاف كثيرة»[(٢)].

وبكل حال هذه المشاهد أو القبور البدعيّة من الكثرة جعلت ابن جُبير يختم ذلك بقوله: «والمشـــاهد المباركة في هذه البلدة أكثر من أن تنضبط بالتقييد، وإنما رسم من ذلك ما هو مشهور ومعلوم»[(٣)].

إن هذه المشـــاهد من الكثرة أنها أصبحت كما يذكر ابن جُبير من أسباب الرزق للغرباء المنقطعين القادمين من المغرب، فيكون أحدهم في «سدانة مشهد من المشاهد المباركة يكون فيه ويجري عليه ما يقوم به من أوقافه»[(٤)].

٧. غلال الأوقاف:

في هذه الفقرة نحاول أن نســـتجلي ما ذكره ابن جُبير حـــول الغلة المتحصلة من الأوقاف في ذلك الزمان والمصرف منها، فنجده يتعجب من قرافة مصر، وأنها «كلها مساجد مبنية ومشاهد معمورة يأوي إليها الغرباء والعلماء والصلحاء والفقراء، والإجراء على كل موضع منها متصل من قبل السلطان في كل شهر.. وحقق عندنا أن الإجراء على ذلك كله نيف على ألفي دينار مصرية في الشهر»[(٥)].

(١) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص ٢٢٠.
(٢) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص ٢٢٠.
(٣) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص ٢٢٠.
(٤) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص ٢١٧.
(٥) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص ٣٣.

وتعرض لما يُصرف على جامع عمرو بن العاص بمصر وأنه «نحو الثلاثين دينارًا مصرية في كل يوم تتفرق في مصالحه ومرتبات قومته وسدنته وأئمته والقراء فيه»[١]. ومعلوم أن كل ذلك من أوقاف على المسجد المذكور.

ذكر ابن جُبير بعض الأوقاف التي أوقفها الملك العادل نور الدين محمود ابن زنكي بن آقسنقر للطلبة القادمين إلى دمشق من بلاد المغرب، وحدد غلته السنوية بأنها «أوقاف كثيرة، منها طاحونتان وسبعة بساتين وأرض بيضاء وحمام ودكانان بالعطارين. وأخبرني أحد المغاربة الذين كانوا ينظرون فيه،... أن هذا الوقف المغربي يغلّ، إذا كان النظر فيه جيدًا خمسمئة دينار في العام»[٢].

وذكر أن وقف الكوثرية في الجامع الأموي بدمشق، وهو مما سبقت الإشارة إليه في الأوقاف التعليمية مقدار غلة الوقف عليه، وحدده بأنه «يغل مئة وخمسين دينارًا في السنة برسم من لا يحفظ القرآن، ويقرأ من سورة الكوثر الخاتمة»[٣].

وكذلك أشار إلى غلة وقف آخر في الجامع الأموي بدمشق، وأن غلته» نحو الألف دينار وأربعمئة دينار في السنة وزائد لقراء سُبع القرآن كل يوم»[٤].

كما أشار ابن جُبير إشارة عابرة إلى مستغلات أوقاف الجامع الأموي نفسه، وذكرها بصيغة التشكيك، فقال وهو يصف الجامع: «وفي الصحن ثلاث قباب: إحداها في الجانب الغربي منه، وهي أكبرها، وهي قائمة على ثمانية أعمدة من الرخام، مستطيلة كالبرج، مزخرفة بالفصوص والأصبغة الملونة، كأنها الروضة حسنًا، وعليها قبة رصاص كأنها التنور العظيم الاستدارة، يقال: إنها كانت مخزنًا لمال الجامع، وله مال عظيم من خراجات ومستغلات تنيف، على ما ذكر لنا، على الثمانية آلاف دينار في السنة»[٥].

(١) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٣٣.
(٢) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٢٢٣.
(٣) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٢٢٨.
(٤) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٢٢٨.
(٥) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٢٠٩.

وحين وصف ابن جُبير البيمارستان النوري بدمشق ذكر أن «جرايته في اليوم نحو الخمسة عشر دينارا»[١]. وبهذا يكون مصرفه الوقفي في السنة الواحدة تزيد عن الخمسة الآف دينار.

٨. أوقاف غير المسلمين في الرحلة:

أورد ابن جُبير صورة تقترب من صور الأوقاف لدى المسلمين، وذلك في جزيرة صقلية، حيث يقول: «أبصرنا للنصارى في هذه الطريق كنائس معدة لمرضى النصارى، ولهم في مدنهم مثل ذلك على صفة مارستانات المسلمين، وأبصرنا لهم بعكة وبصور مثل ذلك، فعجبنا من اعتنائهم بهذا القدر»[٢].

رابعًا: الخاتمة والاستنتاجات

في ختام هذا البحث عن الأوقاف والمصارف الوقفية في رحلة ابن جُبير التي أخذت من عمره قرابة السنتين، يمكن أن نوجز بعض الاستنتاجات من تلك الرحلة ومشاهداته فيها، ومن ذلك:

١. لا يفرق ابن جُبير كثيرًا بين الأوقاف والمصارف الوقفية، وغالبًا ما يذكر المصارف دون ذكر الأوقاف المدرة نفسها، أو إيراداتها، وهذا كثير جدًا في معظم الأوقاف التي ذكرها ابن جُبير خلال رحلته، وإذا ذكر منشأة من المنشآت يذكر أن لها أوقافًا كثيرة أو واسعة أو كبيرة، ويندر أن يسرد تلك الأوقاف أو يعدّدها أو يذكر إيراداتها أو قيمة غلتها. وهذا أمر متوقع؛ فالرحالة يركز على ما يشاهده من منشآت ماثلة أمامه (مدارس أو بيمارستانات... الخ)، ويرتكز إعجابها بها، ومن ثَم يكون الذكر لها دون تبيان أوقافها، وقد تكون أوقافها غير معلومة حتى لمن هو يعمل بها من معلمين أو أطباء.

٢. فات على ابن جُبير كثير من الأوقاف المنتشرة في المناطق التي زارها، فهناك أوقاف كثيرة جدًا من المدارس، والمحاضر، والمكتبات، والبيمارستانات، والخانات، ورد ذكرها في مؤلفات أخرى في الحقبة الزمنيّة نفسها التي زار فيها ابن جُبير تلك

(١) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٢٢٢.

(٢) تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق: علي كنعان، مرجع سابق، ص٢٦٠.

المناطق المذكورة في رحلته، وبخاصة كتب الخطط والتواريخ، ولابن جُبير العذر في ذلك؛ فرحلته لم تكن لرصد الأوقاف أو مصارفها تحديدًا، بقدر ما هي وصف لما يشاهده خلال تنقلاته أو اقامته في بعض المدن.

٣. لقد كان هناك شيءٌ من التوازن إلى حد كبير في ذكر الأوقاف وأنواعها، ولم يكن ثمة تركيز طاغٍ على نوع دون آخر من الأوقاف، إلا في الأوقاف العلميّة والمدارس، وهذه ميزة تُحسب لابن جُبير، فالرحالة ابن بطوطة مثلًا طغت صورة الأوقاف والمصارف الوقفية ذات الصفة الدينية التعبدية مثل: الأربطة، والزوايا والخانقات على المشهد الوقفي كاملًا في الرحلة[١]، وكان ذلك على حساب المظاهر الوقفيّة الأخرى مثل المدارس والبيمارستانات، وبشكل ملحوظ.

٤. احتفاء ابن جُبير بالأوقاف العلميّة والمدارس التي أنشأها صلاح الدين الأيّوبيّ في مصر والشام، وحسن الترتيب فيها، ورعايته للغرباء عامّةً، والطلبة المغاربة خاصةً، وقد أطال الوصف في ذكر تفاصيل تلك المدارس وأوصافها والجرايات التي تصل إلى الدارسين بها، وعلى المنوال نفسه تحدث عن المدارس في بغداد، وحضر بعض الدروس فيها مثل مجالس ابن الجوزي.

٥. على الرغم مما فاضت به الرحلة من فقرات انتقادية أبداها ابن جُبير لبعض الممارسات في حياة المسلمين في البلدان والأماكن التي زارها، خاصة في بعدها السياسي والإداري والاجتماعي، ولكن مما يستغرب عدم نقده الممارسات الشركيّة عند بعض القبور والمشاهد التي زارها، وهي ممارسات شنيعة بحق التوحيد مثل: الطواف حول بعض القبور والانكباب عليها والتمسح بها، وقد يكون لنزعة ابن جُبير الصوفية أثر في ذلك، فقد كان كما وصفه أحد الباحثين «ملقنًا للتصوف»[٢].

٦. لا تخطئ عين القارئ إفراط ابن جُبير في صيغ التفضيل حين يصف ما يشاهده في رحلته سواء للأوقاف أم غيرها من المشاهد، مثل عبارات: (أعظم، أكبر، لم ير مثله، لم يعمر مثلها، لم يسمع مثلها، ارتجت له الأرض، ووجفت الجبال، فما أرى في الأرض.. وغيرها من العبارات الكثيرة)، وقد يكون لذائقته الأدبية أثر في ذلك.

(١) الأوقاف والمصارف الوقفية في رحلة ابن بطوطة: دراسة نقدية، مرجع سابق.

(٢) مع ابن جبير في رحلته، عبدالقادر الصحراوي، مرجع سابق.

٧. إن التطبيق الخاطئ من بعض المسلمين للوقف أدى إلى ترسيخ عدد من الممارسات البدعيـة، مثل بنـاء المسـاجد أو القبب على القبـور، والقراءة عندهـا، من خلال المصارف التي كانوا يثبتونها في حججهم الوقفية، ونظرًا إلى كثرة الأوقاف وانتشارها سـابقًا فإن الكثير من هذه التقاليد ما زالت باقية حتى اليوم في المجتمع المسـلم، وهكذا خرجت الأوقاف عما شُـرعت له، فأصبحت تلك الأوقـاف البدعيّة عالة على المجتمع تبدد ثرواته في أمور أقل ما توصف به أنها ليست من الدين في شيء[١].

٨. إن الفهم غير الصحيح لمقاصد الوقف أدى إلى توسـع الواقفين في وقف الرُبط والخوانق باسم التفرغ للعبادة، وهذا يتضح بجلاء من خلال كتب الرحلات، ومنها رحلة ابن جُبير التي بين أيدينا، فقد ساعد هذا التوسع في تنامي تيار التصوف في العالم الإسـلامي، فهناك صلة «بين تنامي تلك الزوايـا والخوانق والأربطة في العالم الإسلامي، وبين ازدياد عدد المنتسبين للتصوف»[٢]، وهيأت مكانة اجتماعية وسياسية لشيوخ الطرق الصوفية، محولين التصوف من ظاهرة دينية إلى ظاهرة اجتماعية سياسية[٣] مما صرف الأوقاف عن هدفها الأساس ووظيفتها السامية.

توصية:

استكمالًا لهذه الدراسة وغيرها من الدراسات التي حاولت رصد الأوقاف من خلال كتب التاريخ والخطط والرحلات يحتاج مجال البحث إلى مزيد من الدراسـات لرسم صورة أكثر وضوحًا عن الأوقاف على مرّ التاريخ الإسـلامي، وقد يكون ذلك بعقد ندوة علميّة، أو دراسـة أكاديمية لأحد طلاب الدراسـات العليا لتجلية الأمر بشكل أكبر عن الأوقاف والمصارف الوقفية على امتداد العالم الإسلامي وعبر قرون متوالية.

(١) الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر (٦٤٨ - ٩٢٣) دراسـة تاريخية وثائقية، محمـد محمّد أمين، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٠م، ص ١٤٠، وكذلك: ص ٢٩٣.

(٢) الأثر الثقافي للوقف في الحضارة الإسـلامية، عبدالله بن عبدالعزيز الزايدي، مجلة أوقاف، الأمانة العامة للأوقاف، الكويت، العدد ١١، السنة السادسة، ذو القعدة ١٤٢٧هـ، ص ٩٠ - ٩١.

(٣) مجتمع مدينة دمشـق في الفترة ما بين (١١٨٦ - ١٢٥٦هـ/ ١٧٧٢ - ١٨٤٠م)، يوسف جميل نعيسة، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، الجزء الأول، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص ١٦٥.

المصادر والمراجع العلمية

أسباب انحسار البدع في القرن الرابع عشر، مركز سلف للبحوث والدراسات، مكة المكرمة، بدون تاريخ.

الأبعاد الدينية والاجتماعية في رحلة ابن جُبير الأندلسي، رضوان غربي وفاطمة دخية، مجلة قراءات، جامعة بسكرة، الجزائر، المجلد ١٣، العدد ١، ١٤٤١هـ/٢٠٢١م.

الأبعاد الفنية والفكرية في كتاب «رحلة ابن جُبير» لابن جبير الأندلسي، رضوان غربي، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب واللغات، جامعة مُحَمَّد خيضر، بسكرة، الجزائر، ١٤٤٤هـ/٢٠٢٣م.

الأثر الثقافي للوقف في الحضارة الإسلامية، عبدالله بن عبدالعزيز الزايدي، مجلة أوقاف، الأمانة العامة للأوقاف، الكويت، العدد ١١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٧م.

الأسبلة في العمارة الإسلامية، محمد حمزة الحداد، مكتبة زهرة الشرق، القاهرة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.

الأسواق والمراكز التجارية عند ابن جُبير في رحلته، إبراهيم بن مُحَمَّد المزيني، مجلة الدرعية، الرياض، العدد ١٠، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر (٦٤٨ - ٩٢٣) دراسة تاريخية وثائقية، محمد محمّد أمين، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٠م.

الأوقاف والمصارف الوقفية في رحلة ابن بطوطة: دراسة نقدية، عبدالله بن ناصر السدحان، مجلة أوقاف، الأمانة العامة للأوقاف، الكويت، ع٤٣، ١٤٤٤هـ/٢٠٢٢م.

الأوقاف وشمولها للخدمات الصحيّة في الحضارة الإسلامية، إبراهيم بن مُحَمَّد المزيني، مؤسسة ساعي لتطوير الأوقاف، الرياض، ١٤٤٤هـ/٢٠٢٣م.

التحيز اللغوي في رحلة ابن جُبير إلى المشرق العربي، نورهان عبدالرؤوف أحمد مُحَمَّد، مجلة كلية الآداب بقنا، جامعة جنوب الوادي، مصر، العدد ٥٥ أبريل ١٤٤٣هـ/٢٠٢٢م.

الحس الديني في رحلة ابن جُبير، سيف مُحَمَّد المحروقي وشفيق مُحَمَّد الرقب، مجلة كلية عين شمس، العدد الخامس والعشرون (الجزء الثالث)، ١٤٣٩هـ/٢٠١٩م.

الخدمات العامة في بغداد، عبدالحسين مهدي الرحيم، وزارة الثقافة، بغداد، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٣م.

الخدمات الوقفية من خلال كتاب الخطط للمقريزي: دراسة تاريخية، أحمد خلف فندي السبعاوي، دار الكتاب الثقافي، عمان، ١٤٣٨هـ/٢٠١٧م.

الدارس في تاريخ المدارس، عبدالقادر النعيمي الدمشقي، تحقيق: عمار مُحَمَّد النهار، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٤م.

المدرسة النظامية صورة من صور الحياة الثقافية في العالم الإسلامي خلال العصر الوسيط، عصام منصور صالح، مجلة الساورة، جامعة طاهري مُحَمَّد بشار، الجزائر، ع ٥، ٢٠١٧م.

المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن مُحَمَّد الفيومي، الجزء الأول، دار المعارف، القاهرة، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

النّزعة الانتقاديّة في رحلة ابن جبير، مُحَمَّد نايف العمايرة وشفيق مُحَمَّد الرقب، مجلة دراسات (العلوم الإنسانية والاجتماعية) الجامعة الأردنية، عمان، ٢٠١٠م.

الوقف كمصدر اقتصادي لتنمية المجتمعات الإسلامية، سليمان بن صالح الطفيل، ندوة (مكانة الوقف وأثره في الدعوة والتنمية)، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف، مكة المكرمة، ١٤٢٠هـ.

الوقف وبنية المكتبة العربية، يحيى محمود جنيد، مركز الملك فيصل للبحوث، الرياض، ١٤٠٨هـ.

تجليات صورة المرأة وتمثلاتها في رحلة ابن جُبير الأندلسي، رضوان غربي، مجلة إشكالات في اللغة والادب، جامعة تامنغست، الجزائر، المجلد ١٢، العدد ٢، ١٤٤٤هـ/٢٠٢٣م.

تذكرة بالأخبار عن اتّفاقات الأسفار المعروفة برحلة ابن جبير، مُحَمَّد بن أحمد بن جبير الاندلسي، تحقيق: علي كنعان، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٨م

جمالية المكان في رحلة ابن جُبير، أحمد عبدالرزاق خليل، مجلة مداد الآداب، كلية الآداب، الجامعة العراقية، بغداد، العدد الأول، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م.

جهود صلاح الدين الأيّوبيّ في إحياء المذهب السـنّي في مصر والشام، محمد الرحيّل غرايبة، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات (العلوم الإنسانية والاجتماعية)، جامعة مؤتة، الأردن، ١٤٢٥هـ/١٩٩٥م.

حلب والموصل في العهد الأيّوبيّ من خلال رحلة ابن جبير (دراسـة مقارنة في الجانب العمراني)، خالد يوسف صالح، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، جامعة الموصل، العراق، ٢٠٠٩م.

دور الوقف في النمو الاجتماعي وتلبية حاجات الأمة، محمد عمارة، في ندوة (نحو دور تنموي للوقف)، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، ١٩٩٣م.

رحلة ابن جُبير... قراءة تصحيحية لبعض مشاهداته.. ابن جبير في مصر والحجاز والشام، محمد فارس الجميل المجلة العربية، الرياض، ع ٣٢٥١، ١٤٣٩هـ/٢٠١٧م.

رحلة ابن جُبير: دراسة سردية، سمية شاشة، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم اللغة والادب العربي، كلية الآداب واللغـات، جامعة قاصدي مرباح، الجزائر، ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٨م.

سبل عيش العلماء في ضوء كتاب الأنساب للسمعاني، عليان الجالودي، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، الجامعة الأردنية، عمان، ١٤٣٣هـ/٢٠١٣م.

شعرية الوصف في أدب الرحلة: رحلة ابن جُبير أنموذجًا، وناسة بودرع، رسالة ماجستير غير منشـورة، كلية اللغات والآداب، جامعة مُحَمَّد الصديق بـن يحيى، الجزائر، ١٤٣٩هـ/٢٠١٩م.

صحيح الجامع الصغير، الالباني، المكتب الإسلامي، دمشق، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، الطبعة الثالثة.

صحيح مسلم بشرح النووي، النووي، دار الخير، بيروت، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

صورة الشـرق والغرب من خلال رحلة ابن جُبير، فتيحة صحـراوي، المجلة المغاربية للمخطوطات، مخبر المخطوطات جامعة الجزائر، الجزائر، المجلد ١٨، العدد ١، ١٤٤٣هـ/٢٠٢٢م.

لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

مجتمع مدينة دمشق في الفترة ما بين (١١٨٦ - ١٢٥٦هـ/ ١٧٧٢ - ١٨٤٠م)، يوسف جميل نعيسة، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشـــر، دمشق، الجزء الأول، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

مدارس دمشـــق ودورها الثقافي من خلال وصف ابن بطوطة، حسن حلمي أبو الفضل، مجلة المؤرخ العربي، اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة، ١٤٤١هـ/ ٢٠٢٠م.

مدخل إلى علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، عيسى الشماس، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

مع ابن جبير في رحلته، عبدالقادر الصحراوي، مجلة دعوة الحق، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب.
https://www.habous.gov.ma/daouat-alhaq

معلومات ابن جُبير عن الموصل: دراسة تحليلية، طه خضر عبيد، مجلة دراسات موصلية، جامعة الموصل، العراق، العدد ٤٥، محرم ١٤٣٩هـ/ أيلول ٢٠١٧م.

نبذة عن ابن جُبير الأندلسي ورحلته (نثر قديم)، مدونة حسن بن جابر المدري الفيفي.
https://faculty.ksu.edu.sa/ar/halfaify/blog/276761

واقع المذهب المالكي في الحجاز من خلال رحلة ابن جبير، نور الدين بو ذينة، مجلة النوازل الفقهية والقانونيّة، مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة، الاغواط، الجزائر، المجلد ٧، العدد ٢، ١٤٤٤هـ/٢٠٢٣م.
https://faculty.ksu.edu.sa/ar/halfaify/blog/276761